سعـــــداللــــه ونــوس

مسرحية الاغتصاب



سعد الله ونّوس

مسرحية الإغتصاب

من الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الطبعة الأولي

١٩٩٦

الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق

الاغتصاب

إلى ناجي العلي،
ومهدي عامل،
وفواز الساجر.
الذين اغتالهم الظلام والزمن الصعب.

ملاحظات

• في بناء الحكاية، استفدت من عمل الكاتب الإسباني أنطونيو بويروبايخو «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» وفي البداية كان مشروعي هو أن أعدّ نصّ بايخو ذاته للعرض المسرحي، ولكن سرعان ماعدلت عن الفكرة مؤثراً كتابة نصّ جديد حول قضيتنا المحورية، قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

• ولعل من المناسب أن نذكر هنا، أن إلهام المسرح الحقيقي لم يكن في يوم من الأيام الحكاية بحدّ ذاتها، وإنما المعالجة الجديدة التي تتيح للمتفرّج تأمّل شرطه التاريخيّ والوجوديّ. وحين كان الأثينيون القدماء يتوافدون منذ الفجر، حاملين سلال طعامهم وشرابهم إلى المدرجات الحجرية حيث تقام المسابقات المسرحية، لم يكونوا يأتون ليسمعوا حكايات جديدة، بل ليتأملوا شرطهم الحياتي والاجتماعيّ في ضوء المعالجات التي يقدّمها المسرحيون العظام للحكايات المعروفة. كان الأثينيون القدماء يعلمون أن أغاممنون ستقتله زوجه وعشيقها وأن أورست سيقتل أمه، وما كانت سيرورة الأحداث هي التي تثير فضولهم وانتباههم، وإنما المعالجة التي يقدّمها إيسخيلوس أو يوريبيدوس لهذه الأحداث، والرؤية الفكرية التي تطفو من عمل كلّ منهما. وبذلك كان المسرح يتحوّل إلى مكان للحوار والتأمل، إلى مكان للحرية وازدهار الحياة المدنية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن كل التجارب المسرحية العظيمة. هل كان الجمهور الأليزابيتي يتدافع إلى المسرح الشكسبيري لكي يعرف ما هي نهاية ماكبث أو ريتشارد الثالث أو أنطونيو؟.. بالتأكيد لا.. فقصص هذه الوجوه التراجيدية كانت معروفة ومتوفرة في الكتب التاريخية المتداولة في ذلك

العصر. لكنهم كانوا يتدافعون ليصغوا إلى الشعر، وليتأملوا واقعهم كما تشي به رؤى الكاتب وأفكاره.

لقد تعمّدت إيراد هذه الملاحظة لأن عدداً من نقّادنا لم يفهموا جوهر المسرح. وهم يعتقدون خطأ أن العنصر الأساسي في النصّ، وفي العمل المسرحي كله هو الحكاية. ولذا فإنهم يمسخون المسرح وإلهامه الأصليّ إلى تلخيصات سقيمة للحكايات، ويمسخون عملهم إلى مطاردة عقيمة لتقصّي أصل الحكاية.

لا.. ليس المسرح مكاناً للتشويق البوليسيّ. وهو لم يصبح كذلك إلا في فترة انحطاطه، مع ظهور الميلودراما والفودفيل وبقية ملاهي البورجوازية المتصرة في أوائل القرن التاسع عشر. حين فقد المسرح إلهامه الحقيقي، وحين لم يعد مكاناً لتأمّل الشرط الإنساني وممارسة الحوار، اتجه إلى قصّ الحكايات المسلّية، وعكف على تأليف الحبكات البارعة والخاوية معاً.

• في هذه المسرحية راويان وحكايتان. راوٍ إسرائيليّ وراوية فلسطينية. حكاية إسرائيلية وحكاية فلسطينية. والحكايتان تتداخلان، وتتبادلان النموّ. وإنّي أحلم بأدائين متميّزين. أداء يميّز الحكاية الإسرائيلية، وآخر يميّز الحكاية الفلسطينية. وكلا الأدائين ينبغي أن يكون جاداً ورصيناً. وإني أحذّر هنا من أيّ ميل لتقديم الشخصيات الإسرائيلية بصورة مضحكة أو فجّة، كما أحذّر من المغالاة، أو من عجز الممثل عن ضبط عدائيته للدور الذي يؤدّيه. إني أريد أداء واعياً ورصيناً. أما كيف يمكن تمييز الأداء في هذا المستوى، فإني أعتمد في ذلك على بحث المخرج والفرقة التي تقدّم العمل. ربما أسعفت تراتيل المزامير، أو أسفار الملوك، أو حتى إيقاعية اللغة العبرية في استلهام أسلوبية متميّزة في الأداء. لا أدري كيف يمكن أن يتدبّر المخرج هذا الأمر، ولكني أجده ضرورياً.

أما المستوى الفلسطينيّ فإني أتصوّر الأداء فيه مبنياً على البساطة، ونوع من الغنائية المضمرة. وهنا أرجو ألا يحدث أيّ خلط بين الغنائية والخطابية. لا مجال في هذه المسرحية للخطابة. بل إن أي اقتراب من الأداء الخطابيّ يخرب العمل، ويسطّحه.

ـ لاشك أن المخرج مع ممثليه، والفنيين العاملين معه، هو مبدع له رؤيته، وله هواجسه الخاصة التشكيلية والبصرية. وأنا لاأميل أبداً إلى الحدّ من حرية المخرج. فهي ضمانة جوهرية لاكتمال النصّ المشروع في عرض مسرحيّ مبتكر، وقادر على إثارة الحوار. ولكني أعنيّ أن يفرد المخرج في رؤيته الخاصة حيزاً جوهرياً للأفكار. أن يجتهد كي يكون النصّ واضحاً، وكي يجرّ المتفرّج إلى الإصغاء الهادئ. أنا أعرف أن المتفرّج لدينا نافذ الصبر، هشّ الانتباه، وأنه بحاجة إلى محرضات قوية، وأحياناً مفتعلة، كي يتابع عرضاً مسرحياً. وهو لايلام في ذلك. لأن هناك أجهزة ومؤسسات ضخمة تشكل استجابته وذائقته على هذا النحو. ومع هذا ربما حان الوقت كي نجد أساليب وإيقاعات في الأداء تساعد المتفرّج على التركيز، وعلى الاهتمام بالحوار الذي يتابع، وصولاً للتمتع بالإصغاء إلى الأفكار التي تُطرح.

ـ هذه المسرحية نصّ مفتوح. أي أنه قابل للزيادات والتعديلات التي تمليها التطوّرات التاريخية. إن الرواية الفلسطينية لاتختم قولها بل تتركه مشرعاً على أفق مفتوح. ولهذا فإن الإضافات والتغييرات التي تحقق راهنية العرض ممكنة. ومن نافل القول أن مثل هذه الإضافات والتغييرات ينبغي أن تعمّق الرؤية العامة للمسرحية، لا أن تهدمها أو تجعلها ملتبسة، وحتى الرواية الإسرائيلية ـ وإن كان بدرجة أقل ـ هي نصّ غير مكتمل، والنقاش فيها يحتمل المزيد من المحاججة والتوتّر. باختصار.. إني أنظر إلى هذا العمل كمقطع مجتزأ من تاريخ عنيف، مثقل بالاحتمالات والتحوّلات. وإن كل عرض لهذه المسرحية يجب أن يرتكز على وعي بالتاريخ وما يحمل من تغيّرات، بحيث يستفيد من البنية المفتوحة للنصّ كي يطرح القضية في سياق تحوّلاتها الراهنة. وهذا يرتب على المخرج بحثاً إبداعياً، لا في التكوين الفني للعرض فحسب، وإنما في التاريخ وسيرورته أيضاً. إن الوعي التاريخي هنا يضاهي الإبداع الفني أو هو شرط جوهري له.

ـ تهيمن على فضاء المسرح ـ وهذا تصوّر شخصيّ غير إلزامي ـ كتلة ثقيلة من السلالم المعدنية الصدئة، والتي تفضي إلى مكتب مائير. غرفة واسعة، عُلقت على جدرانها صور هرتزل وبن غوريون وبيغن، وخريطة لإسرائيل

التوراتية. المكتب يوحي بالفخامة والحداثة. له أبواب عديدة، وكلّها تحدث صريراً غريباً حين تُفتح وتُغلق. باب يفضي إلى غرفة داخلية حيث تتمّ الحفلات.. وباب يفضي إلى غرفة انتظار. هذه الكتلة التي تؤلفها السلالم والمكتب تبدو وكأنها تدهم فضاء المسرح، وتسيطر عليه.

ماعدا ذلك، فإني أقترح تحديدات رمزية للأماكن التي تتعاقب فيها الأحداث. يمكن أن تتمّ هذه التحديدات بتعدّد المستويات وقطع أثاث قليلة لها طابع الاستعارة، أو بلوحات متحركة على هيئة سواتر يرمز كل منها لمكان، أو حتى للافتات مكتوبة. المهمّ أنه لاداعي على الإطلاق لخنق الفضاء بركام من الأمكنة الواقعية المتخمة بالأثاث. والحضور الرمزيّ للمكان يساعد على مرونة الحركة من جهة، كما يبرز فظاظة الكتلة الواقعية المؤلفة من متاهة السلالم والمكتب من جهة أخرى.

الإضاءة تلعب دوراً هاماً في تتابع الأحداث، وتغيير مواقعها.

سفر الأحزان اليومية / بداية...

(طابون في ركن من الدار. الفارعة ترقّ أقراص العجين، وتخبزها. قربها وعلى حشية بالية، مددت طفلاً ملفوفاً بالأقمطة).

الفارعة : **(تخرج رغيفاً ساخناً، وتشمه)** هل تشم هذه الرائحة يا وعد! تلك هي رائحة الخبز الطازج. استنشقها بعمق، وخزّنها في ذاكرتك. لاشيء يضاهي رائحة الخبز، إلا رائحة الأرض المرويّة. هاتان الرائحتان هما ألطف وأنبل روائح الكون. إنهما النعمة التي تغذي الشوق إلى البيت والحب والعمل. **(يهمهم الصغير لاهياً)** لا.. لا تقل إن عمتك مخرّفة، وإن الوقت مبكر على الدروس. من يولد كالبضاعة المهربة لايستطيع أن يتبع قوانين النمو الطبيعية! قل لي.. أليس القانون الطبيعي أن ترضع حليب أمك سنة على الأقل! ولكن كم يوماً رضعت من ثديي أمك؟ عشرين يوماً لا أكثر، ثم فُطمت عنها. وبدأت طورك الثاني، أترى.. أنت محكوم بالنمو وفق قانون لا يخص أحداً سوانا! عليك أن تنمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. ومبكراً يجب أن تفهم الشوق، وأن تتعلم الكلمات التي تناسب قصتك. حكى الولد وعد، وعمره بالشهور لا بالسنوات.. حكى قال: أنا

وعد بن محمد الصفدي، عرفت قبل الولادة قصتي.. حين كنت في بطن أمي، طُردت مرتين من بلدي. ولما حانت ساعة ميلادي، عزَّ علي أن أرى النور في أرض غربة. فتمسكت بجدار الرحم، وعاندت حتى استطاعت أمي، أن تأتي، وتلدني في أرضي.. أنا وعد بن محمد الصفدي كافأت أمي بولادة سهلة. ويوم ولدت نسف الاحتلال خمسة بيوت في الحارة المجاورة، فأطلقت صرختي الأولى. وقبل أن أتمَّ أول شهوري، انتزعوا أمي مني، ورموها خلف الجسر.. ظلت تولول وتعصر صدرها، حتى تدفق خلفها نهر من الدموع والحليب. حليبي الذي خزنته مؤونة لي. لم أخاطر بالرحيل مع أمي خشية ألا يسمحوا لي بالعودة إلى وطني. بقيت في حضن عمتي.. وعمتي تريد أن أنمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. أن أتعلّم الشوق والكلمات وعمري بالشهور لا بالسنوات..هكذا ستحكي يا وعد.. وستضيف، حين كان عمري سبعة شهور سجنوا عمي إسماعيل.. وعمتي تتمنى أن أكون حين أكبر مثل عمي إسماعيل، ومثل جدي حسين الصفدي. أما أبي.. ولكن.. لا.. لندع أباك في همّه. **(ترتب الأرغفة، وهي تتلذذ برائحتها)** هذه هي رائحة البركة.. فهل نقشتها في ذاكرتك! يا الله.. هل نذهب إلى الخالة دلال؟

(تلاشي الإضاءة).

ترتيلة الافتتاح

(في إضاءة خافتة، يتقدّم الدكتور أبراهام منوحين على الخشبة).

الدكتور : هذه مملكة العصاب والجنون. الرأس كلّه مريض، والقلب بجملته سقيم. من أخمص القدم إلى الرأس لا صحّة فيه. بل كلومٌ وخَبَطٌ وجراحٌ طريّة لم تعصب، ولم تُلَيَّن بدهن.

(ينسحب الدكتور منوحين. بروق ودويّ انفجارات متتابعة. قوة إسرائيلية تنسف عدداً من البيوت العربية. مع الانفجار الأول تظهر الأمّ سارة بنحاس مفعمة الحماسة والهياج. يتبعها ويتحلق حولها مائير وإسحق وجدعون وموشي ودافيد.. الانفجارات متواصلة).

الأم : كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرّيّة ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم.

مائير : وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريماً.

جدعون : أبسلهم إبسالاً.

موشي : اذبحهم ذبحاً.

الأم : ولا تعفُ عنهم. بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

مائير : عليكم ألاّ ترحموا حتى تدمّروا نهائياً مايسمّى بالثقافة العربية، التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها.

(برق ودويّ انفجار أخير ومديد.. تنسحب المجموعة).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول..

(تدخل الفارعة حاملة الطفل على صدرها. وفي يدها الأخرى كيس فيه أرغفة طازجة وحاجات الطفل. تبدو دلال كئيبة ونافدة الصبر.. تتناول منها الطفل).

دلال : اسم النبي حارسك.

الفارعة : مدديه على السرير. ملَّ من دروسي فنام.

دلال : كم تأخرت!

الفارعة : حملت لك خبزاً طرياً.

دلال : ومن يجد شهية للطعام!

الفارعة : ستجدين الشهية، وستأكلين. **(تبدأ في وضع الطبق، وفرش أرغفة الخبز عليه)** انظري كيف غارت الحمرة في خديك. إذا لم تجدي شهيتك، فإن أخي لن يجد مايحضنه حين يخرج.

دلال : هل عرفت شيئاً عنه؟

الفارعة : ككل يوم، ذهبت واستفسرت. مازالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا فوراً. **(تضع على الطبق زيتاً وزعتر)** هذا هو الزعتر، وهذا هو الزيت. **(وكأنها تهتف في مظاهرة)** زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت. يا الله.. انضمي إليّ ولنبدأ مظاهرة منزلية. **(ترفع قبضتها وكأنها تسير في مظاهرة)** زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.

دلال : وماهذا الشين بيت؟

الفارعة : ألم تسمعي بالشين بيت من قبل!
دلال : لا أظن..
الفارعة : إنه الجهاز المسؤول عن الأمن في الأرض المحتلة. الجهاز الذي يسجن، ويعذب، ويبعد، ويحصي أنفاسنا.
دلال : أعوذ بالله..
الفارعة : ردّدي معي إذن.. زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.
دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدثني قلبي أن إسماعيل ليس بخير..
الفارعة : **(وهي مازالت تروح وتجيء لإعداد العشاء)** دعك من الوساوس. أعرف إسماعيل كما أعرف نفسي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنموا شيئاً من مناطحة الصخر.
دلال : وهذا مايزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.
الفارعة : هل كنت تفضلينه خرعاً يبول في سرواله.
دلال : لا أدري ماذا أفضّل! كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه! لم يمضِ على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى، أحسست أني أضعف من أن أتحمل سعادتي. لم تهمني معارضة أبي، ولا لغط الناس حولي. كنت مأخوذة بالأيام البهية التي سنحياها معاً. أنا وهو وهذا العش. لكنه أخفى عليّ سرّه، ولم يخبرني شيئاً عن حياته الأخرى.
الفارعة : أراد ألّا يفزعك، أو ينغّص فرحتك. لقد تردد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.
دلال : نعم.. تردد طويلاً، وكدت أيأس. أحياناً كنت أشك في حبه، فتسودُّ الدنيا في عيني، وأشعر أني ضائعة.
الفارعة : وكان يتنهد وهو يتحدث عن حبه. يحكي لي عن دفقة

الحياة والبراءة.. عن طالبة اسمها دلال، وأبوها تاجر كبير، يرفض مصاهرة معلم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه، كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون. ثم يغمغم.. إنها أغلى من أن أورطها بيؤسي ومخاطري.

دلال : قال لي أبي،إذا واصلت عنادك فانسي أن لك أباً أو بيتاً. أجبته إذا كان هذا هو الثمن فإني أقبله راضية. كانت عيناه ناراً وبغضاً. لولا أمي وخوفه من الفضيحة، لذبحني على عتبة الدار. لكنه بصق ودمدم، اغربي عن وجهي. بالنسبة لي أنت ميتة. خسرت أهلي وبيتي وما أسفت. وحين ضمنا هذا العش طويت الماضي، وتطلعت إلى المستقبل. كل صباح كنت أحس أني متخمرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدثنا عن طفلنا الأول. سميته «زاهر» وسماه «جهاد». كنت متيقنة أن في بطني بذرة تتكون. ولكن لم يكن هناك إلا الفراق.

الفارعة : (**تضع إبريق الشاي، وتجلس على الأرض.**) لاتحدثني عن الفراق. سيعود وستتعبين من الإنجاب. ولكن الخلفة تحتاج إلى بنية متينة.. يا الله يا دلال.. مدّي يدك.

دلال : لا أجد أي قابلية.

الفارعة : مفتاح اللسان كلمة، ومفتاح البطن لقمة. يا الله.. لاتجعليني أزعل.

(**تحاول دلال أن تأكل.. عيناها غائبتان**).

دلال : أتعرفين! لقد فكرت طويلاً خلال هذه الأيام. لم نكن متعادلين. استغرق الحب كل وجودي. أما هو فلم يستغرق حبه إلا هامشاً من حياته.

الفارعة : لا تظلميه يا دلال. كادت عزيمته أن تضعف من شدة الحرص عليك. كنتِ الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش

كلما أوصاني بك.

دلال : لماذا لم تكفِهِ سعادتنا إذن!

الفارعة : ومن يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف!

دلال : ألم تكوني شاهدة! كنا سعداء حقاً. الليالي أعراس والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل أحلام غامضة كالضباب.

الفارعة : وفي ليالي العناق.. ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً، وأحياناً كان يدق قلبه بعنف. وربما فكَّ عناقه، وهمس.. سأرتاح قليلاً.

دلال : هل كان يروي لكِ هذه التفاصيل!

الفارعة : لا.. كان أعفَّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل وأعرف أن الواقع كان يصحبه إلى الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات، ويدق قلبه حين يتناهى وقع أقدام الدورية، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدك القواعد والمدن. كان يرى ما لاترين، وكان يعلم أن عناقكما محاصر.

دلال : أكان هذا الشقاء كله يشاطرنا الفراش!

الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال : ولكن لو رضي بالفرح المتاح لنا، وانزوى عن المشاكل. حولنا آلاف يواصلون الحياة، ويعيشون بأمان.

الفارعة : إنه أمان كاذب. لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان. انظري حولك جيداً. إن واقعنا مرعب. موت واعتقالات.. بيوت منسوفة وأطفال بلا أمهات. أتريدين أن يولد ابنك بلا هوية وبلا أمل! هذا الطفل النائم! لغموا حياته قبل أن يولد. إنه ينام الآن فوق لغمه. هو ونحن.. إننا جميعاً نعيش وسط الرعب. فكيف نشعر بالأمان؟ لا.. ماكان

إسماعيل يستطيع أن يقبع في هذه الغرفة، وينزوي عن المشاكل. في حالتنا، الانزواء عن المشاكل يعني الفناء البطيء.. ونحن لا نريد أن نفنى.

دلال : لا أجهل المأساة التي نعيشها، رغم كرهي للسياسة وابتعادي عن أخبارها. ولكن.. كيف أعبر لك.. يجب أن تحبي كي تفهمي مشاعري.

الفارعة : ومن قال لك إني لا أحب!

دلال : هل تحبين حقاً؟.

الفارعة : نعم أحب.. بل أستطيع أن أقول إني متزوجة.

دلال : أهي إحدى دعاباتك! ما هذه القصة؟ ومتزوجة أيضاً!

الفارعة : معك حق أن تستغربي.. هذا سر لا يعرفه إلا إسماعيل.. وماكنت لأقوله لولا معزتي لك، وحرصي على أن تشدي عودك.

دلال : ولِمَ السرية! هل هناك مايجب إخفاؤه؟

الفارعة : لم يمهلنا الوقت كي نوثق العهد الذي تعاهدناه.

دلال : ماذا حدث؟.

الفارعة : إنه في السجن.

دلال : منذ وقت طويل؟

الفارعة : منذ ثماني سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام.. وإذا شئت أستطيع أن أضيف الساعات والدقائق أيضاً.

دلال : يا رب السماوات.. كل هذه المدة! وكم حكمه؟

الفارعة : مؤبد..

دلال : مؤبد! أي مدى الحياة!

الفارعة : نعم مدى الحياة.. ومع هذا ها أنا أعيش وأعمل وأنتظر..

دلال : وماذا تنتظرين؟

الفارعة : أن يخرج..

دلال : كيف؟.. أتتوقعين معجزة؟

الفارعة : ولمَ لا!. نحن شعب محكوم بالعيش وفق منطق مبتكر لايخص سوانا. علينا أن نتوقع المعجزات كما نتوقع الأحداث اليومية المألوفة.

دلال : ألا تخدعين نفسك؟

الفارعة : حتماً لا.. إذا تسربت إلينا فكرة المستحيل ضعنا. لانستطيع أن نمضي من يوم إلى يوم، إلا إذا أيقنّا أن كل أحلامنا ممكنة، وأن المعجزات تجلس منتظرة مجيئنا غداً أو بعد غد.

دلال : يا الله ما أقواك، وما أشد إيمانك! ولماذا حكموا عليه بالمؤبد؟

الفارعة : لأنه اشتبك مع دورية إسرائيلية. كانوا أربعة.. قتل واحد وجرح آخر، وقبضوا على عمر ورفيقه مروان. وكلاهما حكم عليه بالمؤبد. في البداية كانوا في سجن الفارعة، ثم نقل عمر إلى سجن الرملة.

دلال : الفارعة!

الفارعة : نعم.. ولكثرة ماترددت على سجن الفارعة، وغنيت ساهية عالفارعة عالفارعة، سماني إسماعيل الفارعة.. وتبعه الناس ظانين أن اللقب يعني الحاسرة والقوية أخت الرجال.

دلال : لم يخطئوا فأنت حقاً أخت الرجال.

الفارعة : آه لو تعلمين، ما هذه إلا قشرة برّانيّة نمّيتها بالعزيمة والصبر. لقد دُفعت إلى بحر الأحزان قبل أن أتعلم السباحة. كان عمري ستة عشر عاماً حين فقدت أبي وفارسي الأول.. ألم يحدثك إسماعيل عن أبيه؟

دلال : مرة أو مرتين.. أعلم أن إسماعيل كان في العاشرة من عمره، حين فقد أباه.

الفارعة : نعم.. استشهد في أيلول السبعين، وهو يقاتل في مخيم الوحدات. كان رجلاً مجروحاً، انضم إلى العمل الفدائي

بعد هزيمة حزيران. حدّثنا عن عمليات كثيرة شارك فيها، لكنه استشهد في عمان. كان محمد في الثالثة عشرة، وإسماعيل في العاشرة.. ولم تتحمل أمي المرض والفاجعة فتبعته بعد أشهر. وجدت نفسي فجأة كبيرة العائلة. كان ينبغي أن أرعى محمد وإسماعيل، وأن أتيح لهما متابعة الدراسة. اكتفيت بالشهادة المتوسطة، وبدأت أعمل كل شيء، كي أعوض الولدين عن أبيهما.. نجحت مع إسماعيل وكان دائم التفوق.. ولكني لم أنجح مع محمد.

دلال : والشاب الذي ارتبطت به!

الفارعة : كان عُمر رفيق أبي في مجموعته الفدائية.. جاء به إلى البيت مرة، وحدثنا عنه كثيراً. كان شاباً أنهى دراسته الجامعية، لكنه ترك كل شيء وانضم إلى المقاومة. بعد رحيل والدي قدم لي مساعدة كبيرة.. ووسط الفاجعة كان ينمو بيننا شعور جميل وأخضر. أول مرة أمسك يدي، وغمر وجهي بنظراته الدافئة والعميقة، انحلّت قواي، وذاب قلبي.. كان يغيب ثم يعود فجأة، فتورق روحي. كان يحب أخوي حبه لأخوته، وفي آخر مرة التقينا فيها نذرت نفسي له، وتعاهدنا على الوفاء مهما حدث.. ومازلت وفية..

دلال : لم أكن أعلم أنك تتحملين كل هذه الآلام.

الفارعة : هذه هي حياتنا يا دلال.. رويت لك كل هذا، كي تعرفي أنك لست الوحيدة التي تحب، والتي سجن حبها.. حولنا الآلاف من النساء المنتظرات. ولكننا نتعلم كيف نصبر، وكيف نتهيأ للحظات الفرح القادمة. أحياناً أحس أنك حولت حبك إلى قفص ذهبي تقيمين في داخله، يجب أن يقوي الحب أجنحتنا لا أن يضعفها. لقد حان الوقت كي

نخرج من القفص، ونتلمس الواقع. لن يخفف شقاءك إلا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال : ماذا يمكن أن أفعل؟

الفارعة : هناك عمل كثير لمن يحزم أمره.

دلال : أتعنين المقاومة؟

الفارعة : نعم.. المقاومة.. وكم ستكون فرحة إسماعيل كبيرة! ليس هناك مخرج آخر يا دلال.

دلال : لا أظن أن لدي قوتك أو إيمانك. تصورت حياتي على نحو آخر.

الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوة.. لكنك تسجنين نفسك في قفص **(وأوأة الطفل)** استيقظ الأمير.. **(تثب دلال وتحمله)** لاعبيه ريثما أحضّر له الحليب.

دلال : إي تعال.. لا.. لا.. جائع! الأزعر جائع.. حالاً.. حالاً سيأتيك الحليب.. أنت وعد أم وغد..

الفارعة : لن تسمح له عمته أبداً أن يكون وغداً.

دلال : أتسمع.. لايمكنك أن تخوص.. العمة وراءك.

(يطرق الباب بعنف)

دلال : لا أدري من يدق الباب.

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضّاعة)

الفارعة : من؟

جدعون : (من الخارج) افتحوا.. أمن إسرائيلي.

دلال : ماذا نفعل يا عمة؟

الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.

جدعون : (من الخارج) افتحوا وإلا حطمنا الباب.

(تفتح الفارعة الباب بهدوء. يقتحم جدعون وموشي ودافيد الغرفة، وهم يشهرون أسلحتهم).

الفارعة : على مهلكم.. أفزعتم الطفل.
جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟
الفارعة : نعم.. وإسماعيل الصفدي معتقل لديكم.
جدعون : **(نحو دلال)** هل أنت زوجته؟
الفارعة : **(تتاول منها الطفل وتحميها بظهرها)** ماذا تريد منها؟
جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
دلال : نعم..
جدعون : **(إلى موشي)** خذها.
الفارعة : إلى أين؟
جدعون : ليس شغلك.
الفارعة : خذوني بدلاً منها.
موشي : **(يزيح الفارعة بعنف فتكاد تسقط، ويمسك بدلال)** ابتعدي... نريد زوجته.
الفارعة : كسر الله يدك. كدتُ أرتمي فوق الطفل.
جدعون : اخرسي.. من أنت؟
الفارعة : ابنة عمها.
جدعون : وهذا الطفل؟
الفارعة : أتريدون اعتقاله؟
جدعون : تأدبي وأجيبي.. أهو ابنها؟
الفارعة : لا.. إنه ابني.. هل تريد اعتقاله؟
جدعون : سيأتي وقته.. يا الله..
(موشي ودافيد يجران دلال، ويتجهان نحو الباب).
دلال : إني خائفة.
الفارعة : لا تخافي يا دلال. إنكِ أقوى منهم.. ارفعي رأسك وتماسكي. إني أنتظرك هنا. **(يختفي الجميع)** كلنا ننتظرك هنا. كم خاف عليها، وكم حاذر أن يوقظها! ولكن اليقظة

الآن ستكون خشنة ومرعبة. وأنتَ يا صغيري! هذا أيضاً يجب أن تنقشه في ذاكرتك.. لا.. لا لم أنسَ أنك جائع. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه. يا الله.. ها هو الحليب.. ماذا حكى وعد وعمره بالشهور لا بالسنوات..حكى قال: الدجاجة لها بيت.. بيت الدجاجة اسمه القن.. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العش.. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الجحر.. أما أنا الفلسطيني فلا بيت لي.. لأن بيت الفلسطيني يحيا فيه الآن عدو الفلسطيني.. ومن هو عدو الفلسطيني..

(تلاشي الإضاءة تدريجياً).

سفر النبوءات / المقطع الأول

(ضوء على الدكتور أبراهام منوحين. إنه في مكان يشبه الحديقة).

الدكتور : من يفرّج عني وجعي، فإن قلبي فيَّ كئيب. آه يا مملكة العصاب والجنون. أبناؤك ينزفون وليس من يسعفهم، لأن الطبيب نفسه سقيم ويحتاج من يداويه.

(تدخل راحيل بنحاس زوجة إسحق بنحاس، حاملة زهوراً وكيس تسوّق. إنها شابة جميلة).

الدكتور : ينبغي أن أذيع مالديّ، لا لأضيف جديداً إلى علم الأمراض النفسية، ولكن لأن السكوت قد يعني التواطؤ. إني طبيب عجز عن إسعاف مريضه، لأنه لم يستطيع أن يتغلّب على نفوره وإعيائه الداخليّ. في حياتي المهنيّة كطبيب للأمراض النفسيّة، مرّت عليّ حالات كثيرة أشعرتني بالأسى أو الامتعاض. لكن تلك أول مرة أشعر بهذا النفور الذي يصاحبه إعياء كئيب. أيمكن أن نسمّي ذلك خيانة مهنية؟ ربما.. ومن موقعهم هو بالتأكيد خيانة. ولكن في هذا التاريخ المثقل بالأكاذيب، أليس للخيانة وكلّ النعوت الأخرى معنىً مزدوج.. ألم يقولوا لإرميا لا تتنبأ لكي لاتموت بأيدينا.. ولكن مَن الإنسان الحكيم فيفهم هذا! إن مريضي رجل

عاديّ يسكن على مقربة من عيادتي. أعرف زوجته جيّداً.

راحيل : (وقد أصبحت إلى جوار الدكتور) منذ سنتين عالجني من أزمة عصبية حادّة.

الدكتور : كانت تصيبها نوبات من الاندفاع يعقبها همود كئيب. فقدت خطيبها في إحدى نزهاتنا الحربيّة، فانكفأت على حزنها والعناية بوالدها المريض.

راحيل : وحين مات والدي وجدت نفسي أغرق في الكآبة والمرض.

الدكتور : بعد عدد قليل من الجلسات تحسّنتُ وتعلقتُ به.

الدكتور : هذا يحدث أحياناً.

راحيل : صدّني ببرود وصرامة.

الدكتور : كان ذلك ضرورياً.

راحيل : ذات يوم كنت أجلس في هذه الحديقة. لاحظ إسحق أني أبكي، فاقترب مني. كان رجلاً مجرّباً يوحي بالأمن والثقة. قال لي سأشفيك يا مريضتي الصغيرة، وبعد أيام تزوجنا.

الدكتور : انقطعت عن العيادة، وبدا لي أنها شفيت تماماً.

راحيل : صرت أتحاشى الدكتور، وأرتبك حين ألتقي به.

الدكتور : ذلك اليوم، كانت عائدة من السوق. حيّتني وقالت..

راحيل : أحياناً أحنّ إلى هدوء العيادة، ومقعدها المريح.

الدكتور : أتحنّين إلى المرض؟

راحيل : بل إلى التعاطف والـ.. ألا تريد واحدة من زهوري؟

الدكتور : إنهاأبهى وهي في يدك. أهناك متاعب عائلية؟

راحيل : لا.. إن زوجي رائع.. وقد عشنا أوقاتاً حلوة.

الدكتور : والآن؟

راحيل : لدينا طفلٌ رائع أتمنّى أن تراه.

الدكتور : لو تشرّفت بمعرفة زوجك لزرتكم.

راحيل : سأعرّفك به. إنه دائماً مشغول.

الدكتور : مع وجود الصغير لا أخشى عليك من الوحدة.

راحيل : ولكن حماتي.. لن أصدِّع رأسك بالسخافات. هل أستطيع أن أدعوك للعشاء ذات يوم؟

الدكتور : هذا لطف بالغ.

راحيل : سأتلفن لك قريباً.

الدكتور : اتفقنا.

راحيل : إلى اللقاء إذن.

الدكتور : إلى اللقاء.

(تمضي راحيل، ويبقى الدكتور منوحين).

الدكتور : بدت قلقة، وكأنها تريد أن تفضي بشيء ما. خشيت أن تعاودها نوبات الاندفاع التي يعقبها همود كئيب. كان لديها طفلٍ عمره أشهر قليلة. وكانت حماتها امرأة مليحة ومتكبرة. القلب أخدعُ كل شيء وأخبثُه، فمن يعرفه؟!

(ينسحب الدكتور منوحين).

سفر النبوءات / المقطع الثاني

(غرفة الجلوس في بيت إسحق بنحاس، تظهر الأم وهي تهدهد طفلاً في المهد).

الأم : شطّفنا المحبوب وحفّضناه. صرت تعرف جدّتك.. آ.. ماذا تريد؟ أبوك أيضاً كان يضحك حين يريد شيئاً من أمّه. أغنية أم حكاية! هل نكمل حكاية داود الجميل؟ أنت تفهم ما أحكيه لك. أعرف.. أعرف أنك تفهم.. ونظر جوليات داود، فاستخفّ به لأنه كان غلاماً أشقر جميل المنظر. وقال جوليات لداود.. هلمّ فأجعل لحمك لطير السماء ووحش القفر. وكان لما نهض جوليات، وازدلف لملاقاة داود، أن داود مدّ يده إلى الكتف وأخذ منه حجراً، وقذف بالمقلاع، فأصاب جوليات، وانغرز الحجر في جبهته فسقط على وجهه. ولم يكن في يد داود سيف. فركض داود ووقف على الفلسطيني. **(تدخل راحيل)** وأخذ سيفه، وقطع به رأسه.

راحيل : ترفّقي بالطفل يا أمّاه. أذناه الغضّتان لا تتحمّلان هذه العبارات.

الأم : إنها قصّة سميّه داود.

راحيل : سيسمعها كثيراً حين يكبر.

الأم : يجب أن يحفظها قبل أن يعيها. لقد أحسنت تربية ابني،

وسأحسن تربية حفيدي.

راحيل : طيّب.. طيّب، حملت لك بطاريّات للراديو.

الأم : شكراً.

راحيل : (تنحني على المهد) وبنّوتتي الحلوة كيف مزاجها. فرحانة لأن ماما عادت!

الأم : (بجفاف) لأحب أن تؤنّثيه.

راحيل : أترى كيف تحرص الجدّة على ذكورتك؟ أرني أشياءك الصغيرة إذن. لاشكّ أنّها مبلّلة.

الأم : غيّرت له منذ قليل.

راحيل : لا تترك لنا الجدّة ما نفعله. هل تلفن إسحق؟

الأم : لا.. لم يتلفن. ولكن جاءتك رسالة.

راحيلة : رسالة!

الأم : إنها على الطاولة.

راحيل : (تتناول الرسالة) غريب.. إنها من عمتي التي تعيش في أمريكا. منذ وفاة أبي لم تكتب لي.

الأم : خير لها أن تأتي وتعيش في وطنها بدلاً من الثرثرة عبر الرسائل. كم أزدري هؤلاء الذين يعتقدون أن الوطن يكفيه لغو الرسائل وبعض المال.. (وأواة الطفل) أعرف.. أعرف أن وقت الحليب حان.

راحيل : سأذهب لإعداده.

الأم : اقرأي رسالتك بهدوء (تهمّ بالذهاب، ثم تتوقف فجأة) متى تنتهي إجازتك؟

راحيل : تعرفين أن إجازتي مفتوحة.

الأم : ألا تفكّرين في العودة إلى المدرسة؟

راحيل : هل تريدين التخلّص مني؟

الأم : أشعر أن العودة للعمل ستفيدك. إنك تقريباً لا تخرجين.

راحيل : إني مبسوطة في البيت.

الأم : وإسحق؟ هل هو مبسوط؟

راحيل : ولماذا تسألين؟

الأم : أراه معظم الوقت متجهّماً.

راحيل : لاشيء. إنه متعب قليلاً. يبدو أن العمل كثير هذه الأيام.

الأم : هل يتذمّر من العمل؟

راحيل : لا.. إنه متعب فقط.

الأم : عليه ألا يتذمّر من عمله. وعليك أن تزيلي تعبه.

راحيل : إنه لايتحدث أبداً عن عمله. لاتقلقي.. إنه بخير.

الأم : سأذهب لتحضير الحليب.

(تنصرف راحيل إلى قراءة الرسالة. يدخل إسحق. تخفي الرسالة، وتخف لملاقاته).

إسحق : مرحباً يا عصفورتي.

(تحتضنه راحيل بعنف. يمسح على ظهرها بضيق وحرج).

راحيل : إني سعيدة لأنك جئت.

إسحق : مابك؟

راحيل : لاشيء. مشتاقة لك. هل تبقى الليلة معنا؟

إسحق : إلا إذا استدعوني.

راحيل : عظيم. سأحضر لك الحلوى التي تحبها.

إسحق : والمحبوب كيف حاله؟

راحيل : رائق جداً. انظر كيف يبتسم.

إسحق : هل تبتسم لبابا.. تريد أن ألاعبك.. تعال..

راحيل : حين دخلت كانت ماما تسألني عنك. لا يفوتها شيء.

إسحق : تعرفين تعلّقها بي **(تدخل الأمّ ومعها الرضّاعة)** أهلاً ماما.

الأم : أهلاً يا بني.

راحيل : أماه.. سيتعشى إسحق معنا.

الأم : فعلاً!

إسحق : إني اليوم محظوظ. العشاء تطهوه أمي. والحلوى تعدّها زوجتي. من مثلي! وفي الانتظار سأعزف على الكمان مسرّتي.

الأم : **(بامتعاض)** هذا الكمان!. **(تتردّدلحظات، ثم تخرج)**.

إسحق : منذ زمن طويل لم أعزف عليه. نفسي مترعة بالبهجة، وأريد أن أحتفل.

راحيل : أتريد حقّاً أن تحتفل؟

إسحق : ولمَ لا.. انظري.. إن دافيد يهزّ يديه وكأنه يرقص. أتحتفل أنت أيضاً؟

راحيل : هل تشعر بالبهجة فعلاً؟

إسحق : لا أدري.

راحيل : ألم تقل ذلك؟

إسحق : أحاول أن أبدّد شكوكها. ولعلّي أقنع نفسي.

(تدخل الأم حاملة خفاً منزلياً. تضعه أمام إسحق).

الأم : اخلع حذاءك مادمت ستبقى.

(يطيع إسحق أمه مثل طفل. يخرج مسدساً يتمنطق به، ويضعه على الطاولة، ثم ينحني ويخلع حذاءه. الأم تحدّق فيه).

الأم : وجهك شاحب. هل تشعر بالإرهاق؟

(الطفل يصرخ).

إسحق : أبداً.. إن حالتي ممتازة.

الأم : **(تهدهد الطفل)** لاتغضب يا ملكي.. شغلني أبوك قليلاً.. تعال نشرب حلينا بهدوء. **(تدفع المهد، وتخرج به، وهي ترتّل)** تقلّد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي شعبك وبيت أبيك. الملك يشتهي حسنك، فاسجدي له.

إسحق : ماذا تنشد؟

راحيل : مزاميرها المعتادة. ما أقسى حبّها! تودّ لو تستأثر بكما دوني.

إسحق : أرجو أن تتحمّليها.

راحيل : لا.. لا تظن أنّي أشكو، إننا نتفاهم ونمرح معاً.

إسحق : ماذا كنت تقرأين حين دخلت؟

راحيل : إنها رسالة من عمّتي. كتبت ترجوني زيارتها. يبدو أنها تعاني من الوحشة والخوف.

(تتمسّح به راحيل، وتداعبه. يبدو إسحق محرجاً).

إسحق : وما رأيك؟ أيمكن أن تلبّي الدعوة؟

راحيل : وأتركك أنت ودافيد! طبعاً لا. إني لأكاد أعرفها. ومنذ وفاة أبي لم تكتب لي. ألا تقبلني؟

(يضمّها إسحق، ويقبّل عنقها بارتباك).

راحيل : آه.. كم اشتقت إليك!

إسحق : أشعر بالخجل.

راحيل : لا تقل ذلك. ضمّني واسكت.

(يحاول التملّص من عناقها).

إسحق : هذا يحرجني، انظري.. بدأت أتعرّق.

راحيل : أفسدك الدلال.

إسحق : بحقّ الرب لاتسخري مني.

راحيل : **(بحنان)** إنك تهوّل الأمر. لماذا لاتقاسمني متاعبك. إنك لاتحدّثني أبداً عن عملك.

إسحق : ليست لدي متاعب. وعملي هو عملي. لم يتغيّر شيء.

راحيل : ولكننا لانكاد نراك.

إسحق : هذه الفترة لدينا عمل كثير.

راحيل : أترى! إنه إرهاق العمل إذن.

إسحق : مرت أوقات كنت فيها أكثر إرهاقاً، ومع هذا لم يحدث أنّي عجزت. هذا غير مفهوم.

راحيل : **(وهي تعانقه)** اتفقنا ألاّ نتزعج، وألاّ نستسلم.
(يتملص إسحق من عناقها، فتبتعد عنه متجهمة وكسيرة).

إسحق : أرجو أن تفهمي ضيقي.

راحيل : كنت أحاول التعبير عن حناني.

إسحق : راحيل.. تعرفين أني أحبك. بل إنني الآن.. أشعر أني متعلّق بك أكثر من أي وقت مضى.. ولكن.. كيف أقول ذلك.. الإلحاح يزيد إحساسي بالحرج.

راحيل : لاتخطئ فهمي.. إني لا أطلب شيئاً. والمسألة كلّها عابرة.

إسحق : وإذا لم تكن عابرة؟ لن تتحمّلي ذلك.

راحيل : **(تعانقه)** أنا.. زوجتك.

إسحق : **(يتملّص منها)** لا أطيق هذا العذاب.

راحيل : مارأيك باستشارة الدكتور منوحين؟

إسحق : لاينقصني إلا ذلك. سأغدو أضحوكة المكتب إذا علموا.

راحيل : إنه طبيب.

إسحق : ولكنك تعرفين ماذا يعني طبيب الأمراض النفسية! وماذا يفعل هؤلاء الأطباء؟ إنهم يزيدون الناس ارتباكاً.

راحيل : أخبرتك أنه أفادني كثيراً.

إسحق : ما أفادك هو الزواج لا الطبيب.

راحيل : اليوم التقيت به، وتمنّى أن يتعرف عليك. تأكد أن بوسعنا الاعتماد عليه. يمكن أن نذهب معاً إذا شئت.

حق : سيكون ذلك مخجلاً. لا.. لا أستطيع.

راحيل : **(يائسة)** كما تشاء..
(تأتي الأم وهي تحمل كوباً فيه دواء فوّار).

الأم : اشرب.

إسحق : ما هذا؟

الم : دواء للبرد.

إسحق : قلت لك..

الأم : اشرب فوجهك شاحب. **(يذعن إسحق مثل طفل، ويشرب الدواء)** لن يأكل الحلوى إذا لم تهزّي خصرك.

راحيل : إني ذاهبة.

(تخرج المرأتان. يبقى إسحق وحده. يبدو عليه الإنهاك والقلق. يقترب من التليفون متردّداً. يبحث في الدليل بعصبية. يرفع سماعة الهاتف، وهو يتلفّت حوله حذراً. يركّب الرقم).

إسحق : آلو.. عيادة الدكتور منوحين.. أريد موعداً.. اسمعي يا آنسة إني مشغول جداً ولا أستطيع المجيء إلا اليوم.. اعتبريها حالة عاجلة.. لا.. لايزعجني الانتظار في العيادة.. الساعة الخامسة.. اتفقنا.. بنحاس.. الاسم بنحاس.. شكراً... إلى اللقاء.

(يضع السماعة وعلى وجهه ارتياح. يغادر الصالون إلى غرفة أخرى. بعد قليل يتناهى عزف جميل على الكمان. يستمر ذلك فترة. أثناءها يعلو الضوء في المكتب. يظهر جدعون وهو يتلفن. يرن الهاتف في غرفة الجلوس. تأتي راحيل مسرعة من المطبخ وترفع السماعة.. عزف الكمان مستمر..).

راحيل : آلو..

جدعون : السيدة بنحاس..

راحيل : نعم.. من يتكلم؟

جدعون : إنه جدعون الذي يتموّج ويرتعش كلما سمع صوتك.

راحيل : قلت لك.. لا أحب هذا المزاح.

جدعون : مزاح! ومن يمزح! إذا كان الوجد والشوق والرغبة مزاحاً فلا شيء جادّ في الدنيا.

راحيل : إنك تتجاوز الحدود.

جدعون : وهل يعرف المسلوب تمييز الحدود!

راحيل : سأغضب إن واصلت.

جدعون : جميلة وأنت غاضبة. جميلة وأنت هادئة. جميلة في كل حالاتك.

راحيل : هناك اعتبارات يا سيد جدعون.

جدعون : منذ رأيتك أول مرة عرفت أني عاجز عن مراعاة أي اعتبار. فيك شيء لايقاوم. شيء تفتقده كل النساء الأخريات.

راحيل : أرجوك لا تسخر مني.

جدعون : أتسمّين الهيام سخرية؟

راحيل : لديّ متاعب كثيرة فلا تزدها.

جدعون : ألا يمكن أن أكون نافعاً.. جرّبي الاعتماد علي.

راحيل : مع هذه التصريحات، كيف يمكن أن أثق بك!

جدعون : ما الذي لا أفعله كي أكسب ثقتك؟

راحيل : إني بحاجة إلى الصداقة. إلى العون والنصيحة لا أكثر.

جدعون : أهذا ماتحتاجينه فعلاً؟ إن حياتنا قاحلة يا راحيل.. وهي لا تجود..

راحيل : إني متعبة. ولن أصغي إليك.

جدعون : لك ماتريدين، سأذبح قلبي، وأقدّم لك هذا الصديق.

راحيل : أتفعل؟

جدعون : تعرفين أني أسيرك. وأنك قادرة على صياغتي كما تشائين.

راحيل : ما أبرع لسانك!

جدعون : لو عرفت مشاعري لوجدت أن لساني مترجم ركيك.. لا.. لا.. اعذريني لن أتحدّث عن مشاعري بعد الآن. هل أستطيع أن أكلّم إسحق؟

راحيل : لحظة.. سأناديه لك.

(تضع السماعة جانباً. يطفو على ملامحها تعبير غريب. تطرق الباب بهدوء ثم بعنف. يتوقف عزف الكمان، ويأتي إسحق..)

إسحق : ماذا هناك؟

راحيل : مخابرة لك.
إسحق : **(يتناول السماعة)** آلو.. أهلاً جدعون.. ما الأمر؟
جدعون : بابا مائير يريدك في المكتب.
إسحق : متى؟..
جدعون : هذا المساء.
إسحق : ولكن بابا تركني حراً هذا المساء.
جدعون : طرأت أعمال جديدة. عاد الشحرور من المستشفى.
إسحق : ألا يمكن أن تنوب عني؟
جدعون : عندي مهمّة خارج القسم.
إسحق : ابعث موشي أو دافيد.
جدعون : بابا يصرّ على مجيئك شخصياً.
إسحق : لديّ موعد مع الطبيب.
جدعون : دعك من الدلال. ليس لديك ما تشكوه.
إسحق : أؤكد لك أن موعدي في الخامسة.
جدعون : يمكنك أن تتأخّر بعض الوقت. أم أقول له إن العمل يثقل عليك؟
إسحق : لا تكن أحمق.
جدعون : إذن.. عانق زوجتك الفاتنة وتهيأ. لديك اليوم حفلة دسمة.
إسحق : طيب.. طيب.. **(يضع السماعة بغضب)** رجل فاجر..
راحيل : أتنوي زيارة الطبيب حقاً؟
إسحق : كانت مجرد ذريعة. أحضري لي الحذاء. أنا آسف. غداً سنتغدّى معاً.
راحيل : لا تنس سلاحك.
إسحق : آ.. نعم.

(يرشق قبلة على شفتيها.. وتتلاشى الإضاءة).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(غرفة فقيرة ومرتبة.. تجلس الفارعة على حصير، وفي حضنها الطفل وعد. تهدهده وهي تغني بصوت خافت وشجي).

الفارعة : باب الجفن مفتوح
إن طال هجرك عليّا
لكسروا واعملوا لوح
وأعلم الحمام والعصافير وأقلها تنوح
مع السلامة إحنا رايحين نروح
وإن طال هجرك عليّا
لكتبو على اللوح
وإن غلق باب المحبة
باب الجفا مفتوح
وأعلم الحمام يبكي والعصافير تنوح

(يدخل محمد متجهماً. يحمل كيساً صغيراً. يسلم ويجلس على كرسي واطئ من القش).

الفارعة : وها هو أبوك. أعرف ألاعيبك. لاتتظاهر بالنوم. قم وسلم عليه.

محمد : دعيه إذا كان نائماً.

الفارعة : يبدو أنه نام بالفعل.. سأضعه في فراشه. **(تنهض وهي تبسمل)** عوذتك من الشيطان. اسم الله عليك وحولك.

(تضعه في السرير وتغطيه) تصور يا محمد. زرت اليوم السيد بشير البوسي والد دلال. قلت لعلها تكون مناسبة للصفاء، والدم لايصير ماء. حين أخبرته عن ابنته غسلنا بالشتائم.. هي وأنا معها. خافت أن تسبب له متاعب مع السلطات، فسمانا قحاباًومخربين.. إي والله سمانا مخربين، وأقسمَ أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملأ أجمعين..

محمد : هذا هو الفالح.. إنه يبتر العضو الذي يؤلمه.

(ينهض بحركة عصبية. يأتي بكأس ماء.. يخرج من الكيس زجاجة عرق).

الفارعة : قطع الله الفالحين أمثاله. إنها ابنته.

محمد : الله زيّن الدنيا بالمال قبل البنين.

الفارعة : هذا مال تفوح منه رائحة الخيانة والعار.

محمد : **(وهو يصب كأس العرق)** المال لا رائحة له.. هؤلاء يا أخت هم الفالحون. إنهم يلهفونها أيام الاحتلال، ويتصدرون المجلس إن زال الاحتلال. وأخوك محمد يقول.. في حياتنا الفانية لن نرى زوال الاحتلال.

الفارعة : فأل الله ولا فألك. كيف يزول الاحتلال إذا كان البعض ينسى ولده وبلده من أجل المال، والبعض الآخر يغرق نفسه بالكحول. ألم تَعِد سهام بالإقلاع عن الشرب!

محمد : اعفيني من المواعظ.

الفارعة : هذه المرة لن أعفيك من المواعظ.. ولن أتركك تدمر نفسك أكثر مما فعلت.

محمد : أختاه.. إن كيلي طافح.

الفارعة : وأختك أيضاً كيلها طافح.

محمد : هل تعبتِ من الصغير؟

الفارعة : الصغير حبة عيني. لكني تعبت من الكبير.

محمد : أتريدين أن أترك البيت؟

الفارعة : هذا بيت أبيك فلماذا تتركه؟.. افهمني يا محمد. كل ما أريده هو ألاّ تدمر نفسك.

محمد : لن يزيد العرق دماري.

الفارعة : لماذا تحب دائماً أن ترثي لحالك؟

محمد : لأن هناك مايستحق الرثاء. رفضوا طلبي الثاني لجمع الشمل. ولن يكون بوسعي أن أعيش مع امرأتي وولدي كما يعيش كل الناس. ستظل في إربد. وأنا هنا. وفي اللقاءات المسروقة يتوالد أطفالنا كاللقطاء.

الفارعة : هذا هو الاحتلال.. ومن يرَ مصيبة غيره تهن عليه مصيبته.

محمد : لو توفرين عليَّ هذه الأمثال! شقيت كثيراً في حياتي. لو بدأت أحكي لكِ ما لاقيت لما فرغت حتى الصباح. وكانت الحلاوة الوحيدة التي ذقتها هي سهام. إذا فقدتها سأضيع، ولن يبقى في حياتي إلا الشقاء.

الفارعة : ولكن ماذا نستطيع! إنهم كفار ولايعرفون الرحمة. انظر ماذا حلَّ بأخيك وامرأته.

محمد : لاشأن لي بأخي وامرأته.

الفارعة : لماذا تبدو كالملدوغ كلما ذكر أخوك؟

محمد : لا شأن لي بأخي.. له طريقه ولي طريقي.

الفارعة : محنتنا واحدة يا محمد، فكيف يمكن أن يكون لكل منا طريق!

محمد : دعيني بعيداً عن إسماعيل ومشاكله. هو اختار.. وأنا اخترت.

الفارعة : وماذا اخترت؟

محمد : أن أجرب كل الوسائل كي أجمع شمل عائلتي.

الفارعة : وماذا لديك من الوسائل؟

محمد : قيل لي.. إن العمل في ورشاتهم يسهل الموافقة على الطلب.

الفارعة : (يحتد صوتها) تريد أن تعمل في ورشات الإسرائيليين!

محمد : كله عمل.. هنا أو هناك.. ما الفرق؟

الفارعة : أتساوي بين المحتل وابن البلد؟

محمد : ابن البلد! أنت تعرفين القصة وما فيها. يأكلون حقوقنا باسم الوطن والدين. ألم تصل بيني وبين المتعهد «أبو قحطان» للسماء؟ قلنا له الأجرة ناقصة. فنبر في وجهي وصاح لماذا اللف، تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود! اذهب.. لا أحد يمنعك. قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه، هو الذي يأكل حقوق أهله. وكلمة من هنا.. وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر.. هذا هو العمل مع ابن البلد.

الفارعة : ومع هذا لا أصدق أنك جاد.

محمد : ولماذا لا أكون جاداً! قد أحصل على الموافقة، والأجور هناك أفضل.

الفارعة : الأجور أفضل لأنكم مع العمل تعززون الاحتلال.

محمد : فضّي هذه السيرة يا أختي. الاحتلال معزز سواء عملنا معهم أم لم نعمل. لو سافرت مثلي، ورأيت كيف تجري الأمور في البلاد العربية، لعرفت أن الاحتلال معزز، وأن بوسعهم احتلال المزيد لو شاؤوا.

الفارعة : أعرف كيف تجري الأمور في البلاد العربية.. ولكني أعرف أيضاً كيف أميز رنة الاستسلام.

محمد : إذن سجليها بالأحرف التي تروقك.. أنا مستسلم.

الفارعة : يا عيب الشوم.. لاريب أن عظام أبي ترتعش في قبرها. من يصدق أن ابن حسين الصفدي، هو الذي يقول هذا الكلام!

محمد : لا تحاولي محاصرتي بحسين الصفدي؟

الفارعة : هل يلدغك ذكر أبيك أيضاً؟

محمد : اسمعي يا أخت. سأخبرك أمراً لا تعرفينه. لاحقني حسين الصفدي سنوات طويلة. كان ظله يتبعني كفرقعة السوط. خوف غامض لايجعلني أستقر أو أثابر على عمل. سافرت من الضفة هارباً، ولكنه لم يتركني أهدأ. تركت عمان، ورحلت إلى دمشق. تركت دمشق ورحلت إلى بيروت. ولم أفلح في شيء. وكان حاضراً على الدوام كي يغضبَ ويَشمت. لم تخف وطأته إلا بعد أن تعرفت على سهام، وأحببت..

الفارعة : أكنت تكرهه؟

محمد : لا أدري من كان يكره الآخر! ولكني أعلم أنه شوّه حياتي فترة كافية.

الفارعة : كان يقسو عليك أحياناً، لأنه أراد أن تتعلم.

محمد : كان يقسو علي دائماً، لأنه لم يحبني. وكان يقسو على أمّنا لأنه لم يحبها. وكان يرتب الأمور كي يكون إسماعيل ابنه، وحامل رايته. هل تذكرين يوم سأل كلاً منا ماذا يريد أن يكون في المستقبل! وأسرع إسماعيل يصيح.. سأنهي دراستي، وأنضم إلى المقاومة. وبقيت صامتاً. لكن حسين الصفدي التفت نحوي ونخسني.. والكديش ماذا يريد أن يكون؟ فأجبت، وحتى هذه الساعة، لا أدري كيف واتتني الجرأة.. سأكون عتّالاً. وضحكتم جميعاً. وقال حسين الصفدي وهو يتفّ. هذا ما يليق بالكديش. ثم نفش ريشه، وبدأ يقص أخبار بطولاته. يوم معركة الكرامة جعلنا الإسرائيليين يتشهدون.. و.. وإلى آخر تلك الأسطوانة.

الفارعة : كان أبونا بطلاً يستحق أن نفخر به.

محمد : تقاسمي بطولته مع إسماعيل وتغذّيا بها. أما أنا فتكفيني حياة

عائلية بعيدة عن البطولات.

الفارعة : لا ترفع بيننا وبينك سوراً من المرارة. نحن عائلة واحدة يا محمد. ولدنا من صلب واحد. ورضعنا الحليب ذاته. إنك تؤجج مشاعر الغبن، كي تظل ناشزاً ووحيداً. علامَ تلومنا! ألم أبذل كل جهدي كي تواصل تعليمك! ألم أتوسل إليك كيلا تسافر! كم رجوتك أن تكون سيد البيت، وأن تساعدني بعد وفاة والدتي!

محمد : بعد وفاة والدتي، ماكان أحد يحتاجني. المسكينة.. هي الأخرى كان ظله يطاردها، ويجعلها امرأة بائرة. مرة خلع نطاقه وانهال عليها. مازلت أرى الاحتجاج المذعور في عينيها.. كان الدم..

الفارعة : توقف. لماذا تمعن في تشويه ماضينا وذكرياتنا؟

محمد : لأن ماضينا كان مشوهاً. ولأن تلك هي الذكريات الحلوة التي وشم حسين الصفدي ذاكرتي بها.

الفارعة : لم أكن أعلم أن روحك مدمرة إلى هذا الحد!

محمد : أترين! وقليل من العرق لن يدمرني أكثر.

الفارعة : إذن.. أنت مصمم على العمل هناك رغم أن أباك شهيد وأخاك معتقل.

محمد : إن أباكِ وابنه ابتلعا كل المآثر، ولم يتركا لي إلا البحث عن حياة عائلية بسيطة. أجل يا أخت إني مصمم، وغداً سأنضم إلى الذين يركبون الباصات.

الفارعة : أتوسل إليك يا أخي ألاّ تكون غصة في قلوبنا. إننا نحبك، ولايجوز أن تقطع المرارة أواصرنا.

محمد : لا تقلبيها عاطفية. ماحدث حدث. وغداً ينبغي أن أستيقظ باكراً.

الفارعة : تعرف أن هذه غصة لا أستطيع ابتلاعها.

محمد : الزمن يبلع كل الغصص.

الفارعة : هذه الغصة ستبقى في حلقي، ولن أستطيع التحدث معك بعد اليوم.

محمد : ليس بيننا مايقال. وإذا ضجرتِ من الصغير يمكنني أن أتدبر أمره.

الفارعة : ما أشد الظلمة في نفسك!

(تلاشى الإضاءة..).

سفر النبوءات / المقطع الثالث

(عيادة الدكتور أبراهام منوحين..)

الدكتور : ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام ونزاع للأرض كلها. لم تزرعي في قلوب أبنائك إلا الكبر وكراهية الأغيار. كيف ينسى المرء تلك الرهبة المليئة بالبغضاء التي تغذّى بها طفلاً! وحين يكبر كيف ينقذ روحه من الاعتلال، أو يتفادى القسوة والعدوان! دفعت الكثير من الوقت والعناء كي أتخلّص من غذاء طفولتي. ولكن هؤلاء الذين يحرصون على غذاء طفولتهم يدفعون ثمناً أغلى.. ذلك اليوم جاء إسحق بنحاس إلى عيادتي، وتدبرت الأمر كيلا ينتظر طويلاً.

(يدخل إسحق متجهّماً ومرتبكاً).

إسحق : مساء الخير يا دكتور.

الدكتور : مساء الخير. سبق لي التعرّف على السيدة زوجتك. ويسعدني أن ألتقي بك.

إسحق : شكراً.. أما المريض هذه المرة فهو أنا.

الدكتور : تفضل بالجلوس. **(يمد له علبة سجائر)** أتريد سيجارة؟

(يضحك إسحق بعصبية وهو يتناول سيجارة.. يشعلها له الدكتور).

إسحق : شكراً. اعذرني إذا ضحكت. بادرتني بما أبادر به الآخرين عادة.

الدكتور : هل تقدم السجائر؟
إسحق : نعم.. ولكن لندع هذا جانباً.
الدكتور : تفضل.. ما الأمر؟
إسحق : ليس الأمر سهلاً.
الدكتور : إني هنا لمساعدتك. استرخ، وابدأ من أي نقطة تشاء.
إسحق : لعلّ من الأفضل.. أن أقول كل ما لديّ دفعة واحدة.. منذ فترة وأنا لا أستطيع القيام بواجباتي الزوجية.
الدكتور : هل تخيفك الكلمة؟
إسحق : أي كلمة؟
الدكتور : العجز. تريد أن تقول إنك تعاني عجزاً جنسياً.
إسحق : نعم.. وهذا يرعبني كثيراً.
الدكتور : لنحاول إيضاح المسألة. هل تشرع في الجماع، ولا تستطيع إنجازه أم أنك لاتشعر أساساً بالرغبة؟
إسحق : أحاول ولا أستطيع. لكن لا أعرف إن كنت حقيقة أشعر بالرغبة. زوجتي تبذل أقصى ما في وسعها لإنعاشي وإثارتي، ولكن لافائدة. أحياناً لايحدث شيء على الإطلاق، وأحياناً يتمّ القذف دون توقّع، وقبل أن أستكمل الوضع اللازم.
الدكتور : حتى الآن لا ينبغي أن تقلق. هذه الأعراض مألوفة، وتحدث أكثر مما يظنّ الناس عادة.
إسحق : يسرّني أن أسمع ذلك يا دكتور.
الدكتور : هل مررت بتجربة مماثلة في ظروف أخرى؟
إسحق : أحياناً لم أكن أشعر بشهوة. لكن هذا عاديّ فيما أعتقد.
الدكتور : والقذف دون توقّع.. هل عرفته من قبل؟
إسحق : لم يحدث لي من قبل.
الدكتور : هل أنت رجل حادّ المزاج يا سيد بنحاس؟
إسحق : لنقل إني صاحب مزاج خاصّ.

الدكتور : هل تحب زوجتك؟
إسحق : أكثر من أي امرأة أخرى.
الدكتور : ألا يمكن أن تشعر ولو لفترة عابرة أنك مُتعَب منها؟
إسحق : لا.. يا دكتور.. في البداية خطرت لي هذه الفكرة، وقلت لنفسي يستحسن التنويع. بعد الزواج لم أعاشر إلا زوجتي، وقرّرت أن أجرّب امرأة أخرى. من أجلها.. من أجل أن أعود إليها.. وذهبت بثقة بالغة إلى امرأة كنت أحبّها كثيراً من قبل.. كانت تجربة مذلّة ومهينة. وبعدها استبدّ بي الخوف.
الدكتور : كم ساعة تعمل في اليوم؟
إسحق : أعمل كثيراً، لكني أتمتّع بصحّة جيدة. لا.. لست مرهقاً ولامسمّماً. لا أشرب ولا أدخن إلا نادراً. وأكثر من ذلك.. في الأيام الأخيرة أخذت حقن هرمونات. طلبتها من طبيب الإدارة متذرّعاً بأنني أمرّ بمغامرة خاصّة، ولا أريد أن أهمل زوجتي أثناءها. وكل هذا بلا جدوى.
الدكتور : يبدو أنك معافى من حيث القوّة الجنسية.. والآن أجبني بصراحة. أرجوك فهذا هو الأفضل.
إسحق : عن أيّ شيء؟
الدكتور : هل شعرت وأنت كبير بميل جنسي، مهما كان ضئيلاً، نحو الذكور؟
إسحق : إطلاقاً.
الدكتور : وأنت صغير؟
إسحق : على ما أذكر.. أبداً.
الدكتور : ألديك مع النساء ميول أخرى غير ممارسة الحب؟
إسحق : ما الذي تعنيه بالميول الأخرى؟
الدكتور : الاكتفاء بالمداعبة. القسوة. الامتناع إرادياً عن إتمام العملية.
إسحق : إني أتمّ العملية دائماً. والخشونة تثير نفوري سواء بدرت منها

أو مني.

الدكتور : إذن فأنت طبيعي أكثر من المعتاد يا سيّد بنحاس. اطمئنّ، سنجد العلّة. ماهو عملك؟.

إسحق : أنا؟ موظف حكومي.

الدكتور : وما وظيفتك؟.

إسحق : لسنا معتادين على الصراحة في هذا الموضوع. ثم إني لا أفهم العلاقة بين عملي وما أشكوه.

الدكتور : هل تنتمي إلى أحد فروع الأمن؟

إسحق : ليكن.. لا ضرر إن عرفت.. أنتمي إلى الفرع الداخلي في الأمن القومي.

الدكتور : الفرع الذي يهتمّ بالسكان المحليين؟

إسحق : نعم.. وأرجو أن تكون ممن يقدرون أهميّة عملنا.

الدكتور : كيف بدأت العمل في الأمن؟

إسحق : وماذا يفيدنا الخوض في هذا الحديث؟

الدكتور : ربما كان مفيداً.

إسحق : أعمل في الفرع الداخلي وهو مانسمّيه القسم السياسي منذ ثلاثة أعوام. أما جهاز الأمن فقد التحقت به بعد فترة تدريبي العسكري.. أي منذ عشرة أعوام تقريباً. مات والدي وأنا صغير.

الدكتور : كم كان عمرك؟

إسحق : ست سنوات وبضعة أشهر.

الدكتور : وماذا كان يعمل أبوك؟

إسحق : كان يعطي دروساً في الموسيقى. وعلى كل، لا أكاد أتذكّره.

الدكتور : ألا تعتقد أنه ترك فيك أيّ أثر؟

إسحق : ربما.. حبّ الموسيقى. إنّي أحبّ العزف على الكمان. بعد موته ربّتني أمي، وتعهّدت حياتي حتى الآن. لم تكن تحب

أن أعزف على الكمان، أو أن أتابع دراستي الجامعية. اقترح رئيسي، وهو صديق للعائلة أن يعدّني للالتحاق بالأمن.. وهكذا بدأت الخدمة. وحين رأى أني نضجت سياسياً نقلني إلى القسم الذي يرأسه.

الدكتور : هل أفهم أنك أجبرت على هذا العمل؟

إسحق : طبعاً لا.. حين كنت صغيراً لم أكن أقدّر مصلحتي جيداً. أما الآن فأنا أحبّ عملي، وأشعر بالاعتزاز لأني أخدم وطني.

الدكتور : عظيم.. في رأيك ماهي الأسباب الممكنة لهذا الاضطراب الذي تعانيه؟ أسألك.. لأن المريض أحياناً يشكّ بشيء ما.. وشكه يضيء لنا الطريق.

إسحق : أنا.. لا أعرف.

الدكتور : فكّر معي.. ألم يعرض لك في الفترة الأخيرة أمرٌ له علاقة بالجنس؟ حلم. قصة.. تجربة رأيتها أو سمعت عنها.

إسحق : لا..

الدكتور : لماذا لاتنظر إليّ؟

إسحق : قلت لك لا.

الدكتور : لماذا طرفت عيناك حين طرحت السؤال؟

إسحق : مجرّد صدفة.

الدكتور : لا.. ليست صدفة. أنت رجل أمن، وتعرف مغزى هذه الاستجابات العفوية.

إسحق : هذا لا علاقة له.

الدكتور : وما أدراك! احك.. حتى ولو بدا لك الأمر بلا أهمية.

إسحق : ولكنه أمر لا علاقة له بما نحن فيه. إضافة إلى أنه شيء من أسرار المهنة.

الدكتور : وأساس مهنتي هو حفظ الأسرار يا سيّد بنحاس. هنا يأتي الناس ليقصّوا عليّ أسرارهم.

إسحق : مهما كان.. لايجوز أن أبوح به.

الدكتور : كما تشاء. ولكن في هذه الحالة لا أستطيع مساعدتك.

إسحق : طيب.. سأحكي مادمت مصمماً. إلا أني لا أرى العلاقة بين هذا و..

الدكتور : تكلّم يا سيد بنحاس.

إسحق : إنها أمور قد يساء تقديرها، لكنها ضرورية.

الدكتور : أنا هنا لأعالج لا لأحكم.

(ينمو الضوء تدريجياً في مكتب مائير، وتظهر كتلة السلالم المخيفة).

إسحق : هناك.. نحن نتعامل مع حثالات.. قرود تسير على قائمتين، ولا تحسن إلا الشرّ والكذب.

الدكتور : من تعني؟

إسحق : العرب طبعاً.

الدكتور : طيّب.. أرجوك تابع.

إسحق : منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، كان علينا أن نعامل بصلابة واحداً من تلك الحثالات. وقد أرادني بابا إلى جانبه.

الدكتور : بابا؟

إسحق : هكذا نسمّي رئيسنا مائير، وهو رجل عظيم.

الدكتور : أأنت من سمّاه كذلك؟

إسحق : لا أذكر. كلنا نناديه بابا.

الدكتور : هل هو صديق العائلة القديم؟

إسحق : هو نفسه.

الدكتور : استمر من فضلك.

(ينهض إسحق، ويتّجه نحو السلالم، ثم يبدأ بالصعود إلى المكتب).

إسحق : في الفترة الأخيرة كثرت عمليات التخريب. وتعرف

حساسيّتنا تجاه كل مايمس الأمن. إن العرب الذين سحقناهم في الحروب، تحوّلوا كأي جبان إلى أعمال الإرهاب والتخريب. وقد علّمنا تاريخناأن خير وسيلة لمواجهة الشر! هي استئصاله قبل أن يستفحل. إن مهمّتنا شاقّة. ولولا يقظتنا لتهدّد أمن الدولة اليهودية. هل نعاملهم بقسوة؟ ولكن هذا ضروريّ. إن اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الهمج هي الشدّة.

(يدخل إسحق إلى المكتب، ويتقدّم من مائير. يؤدي له التحية).

إسحق : سيدي.. ها هو اعتراف المتّهم الذي كلفتني به.

مائير : هذه سرعة قياسية.

إسحق : إنه خرقة براز. لم يتحمّل إلا قليلاً من الضغط.

مائير : هل باض نيئاً أم مطبوخاً؟

إسحق : لا أعتقد أنه طريدة حقيقية.

مائير : وما الفرق! عملنا أن نمحق الإرهابيين، وأن نروّع الآخرين.

إسحق : لكن إسماعيل طريدة حقيقية.

مائير : سيأتون به الآن. وسنحمله على الاعتراف مهما كلّف الأمر.

إسحق : ما الذي لم نجرّبه معه؟

مائير : لدي دائماً مليّنات احتياطية. أريدك إلى جانبي وأنا أدير هذه الحفلة.

(يقرع جرس المكتب.. يرن الهاتف، فيرفع السماعة)

مائير : آلو.. نعم.. تقارير صحفية عن حالة المتعقلين. لن أوسخ مؤخرتي بها.. هذا شأنكم.. لاأبالي بالمحامين الدوليين. خذوهم لزيارة حائط المبكى أو القدس القديمة.. نعم هناك حملات اعتقال واسعة. لم نحرّر يهوداً والسامرة، كي يعشّش فيها الإرهاب.. أرجوكم.. نحن نعمل عملنا، وعلى

السياسيين صياغة التصريحات المنمّقة.. أنا مشغول الآن.. إلى اللقاء (**يضع السماعة بحنق**) هؤلاء المدنيّون المختّثون يثيرون أعصابي.

(**يدخل دافيد وهو يقود إسماعيل المكبّل بالأغلال**).

مائير : فك قيوده يا دافيد (**يفك دافيد قيوده. يتحسّس إسماعيل معصمه. يقترب منه مائير**) هل كانت القيود ضيّقة؟

دافيد : ليست ضيقة. ولكن أي احتكاك يؤلمه بسبب الحروق.

مائير : آ.. الحروق. ماهذه إلا لسعات بسيطة. آثار شرارات تطايرت من المعدن. كم مرة وضعناه تحت التيار يادافيد؟

دافيد : لاشيء يا سيدي.. ست مرات فقط.

مائير : أرني أظفارك (**يمسك يده اليسرى**) نحن لانحبّ الضيوف العنيدين. لماذا لاتتعلمون؟ (**يضغط على أطراف أصابع اليد. يكتم إسماعيل تأوهاته**) ألم تدفعوا ثمن العناد غالياً.. أربع حروب وأربع هزائم. الأبله وحده هو الذي لايستوعب الدرس بعد أربع هزائم. (**يشتد ألم إسماعيل**) لا تتباكَ.. فنحن لم نمسّ بعد يدك اليمنى. إننا نحتفظ بها سليمة للتوقيع.

(**يدخل موشي حاملاً ورقة وعلى وجهه أمارات الظفر**).

موشي : سيدي.. أخيراً باضت فرختي أسماء وأمكنة اتصال ولقاءات.

مائير : (**يتناول الورقة، ويتفحصها**) ماذا تأمل بعد ذلك؟ كلهم تخلّوا عن البطل. اعترفوا ووقّعوا. اقترب.. أيهمّك أن ترى اعترافاتهم؟ انظر إذن..

(**يتطلع إسماعيل بفضول واهتمام إلى الورقة، ثم ينفجر بالضحك**).

موشي : (**يهجم عليه**) أتضحك يا ابن الزانية؟

مائير : دعه يا موشي. علام تضحك؟
إسماعيل : هل اعترفوا بالعبرية؟
مائير : أتريد أن نستخدم العربية في محاضرنا؟
إسماعيل : علام وقّعوا إذن؟
مائير : على اعترافاتهم.
إسماعيل : اعترافاتهم المكتوبة بلغة لايفهمونها.
موشي : اسمعوا ابن الشرموطة. وفوق هذا يماحك.
مائير : هل تظن أننا زوّرنا الاعترافات؟
إسماعيل : لا أدري.. هذا شأنكم.
مائير : دعك من المكابرة. كلهم خانوك، وتساقطوا كالبراز. أعطه سيجارة يا إسحق.

(يتاول إسحق علبة سجائر عن الطاولة، ويمدها لإسماعيل الذي يتجاهلها).

إسحق : خذ..
مائير : أتخشى على طهارتك! لكن.. دعه على راحته يا إسحق. قرّرنا اليوم أن نكون ودودين معك. ولكن لا تخدع نفسك. صارت لدينا لوحة شبه كاملة. لم تبق إلا بضعة تفاصيل صغيرة وتنتهي ضيافتنا. في العاشر من الشهر الماضي، التقيت زائراً جاء من خارج البلاد، وأعطاك رزمة حملتها إلى مكان وشخص نعرفهما. كل ما نريده هو اسم الزائر، وهل أدخل الرزمة معه، أم أعدّ محتوياتها هنا؟
إسماعيل : لم ألتق أي زائر، ولم أحمل أي رزمة.
مائير : الشخص الذي تسلّم الرزمة، وأصيب في العملية، ذكر اسمك قبل أن يموت.
إسماعيل : قلت لكم لا أعرفه.
مائير : لدينا اعترافات عديدة تؤكّد صلتك به.

إسماعيل : ومع هذا لا أعرفه.

مائير : هذا العناد محزن، إنك لاتساعد نفسك. ألا تحنّ إلى بيتك وزوجتك؟ أعتقد أنك لم تتزوّج منذ زمن طويل.

موشي : منذ ثلاثة أشهر فقط.

مائير : مازلت في شهر العسل. لماذا تفرّط بسعادتك مجاناً؟ ألا تحبّ أن تنجب طفلاً! ومن يدري لعلّها حامل.. بكل أريحيّة أقترح عليك أن تعترف.

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ.

مائير : أتسمع يا إسحق. لقد أخبرنا بما لديه. نادوا جدعون **(يذهب دافيد إلى باب غرفة الانتظار)** أمتأكد أنه لم يبق لديك ما تخبرنا به؟

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ.

مائير : إذن دعونا نتهيّأ لاحتفال عائلي بسيط.

(من غرفة الانتظار، يأتي جدعون، وهو يدفع دلال المقيّدة بالسلاسل أمامه).

جدعون : ها هي العروس يا سيدي.

(يبدو إسماعيل مصعوقاً. أما دلال فعلى وجهها تعبير ذاهل، وفي عينيها بريق غريب).

إسماعيل : عونك يا رب..

دلال : (هامسة) إسماعيل! ها نحن نلتقي.

إسماعيل : اغفري لي يا دلال.

مائير : ألا تعانق عروسك؟ أحبّ مشاهد العشق.

إسماعيل : هي لا شأن لها. عذّبوني كما تشاؤون. افعلوا بي ماتريدون. ولكن دعوها بعيدة عن هذا الجحيم.

مائير : أنقذها إن كنت تحبّها إلى هذا الحدّ.

دلال : قالت لي الفارعة لا تخافي.. أنتِ أقوى منهم.

مائير : هل أخبرتنا بكل ما لديك؟

دلال : وقالت ارفعي رأسك. وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم.

إسماعيل : ليس لدي ما أخبركم به.

مائير : لنبدأ العرس.

(دافيد وموشي يجران إسماعيل. وجدعون يمسك عجيزة دلال ويدفعها. الجميع يتجهون إلى الغرفة الداخلية).

جدعون : تعالي يا وافرة الخيرات **(تبصق عليه)** آه.. هكذا أريدك. شرسة. أريد عروسي يا رفاق. إني أنتصب كجبل جلعاد.

إسماعيل : كلاب.. كلاب.

(تردّد الكلمة بإيقاعات مختلفة، حتى تتحول إلى مايشبه الحشرجة. يختفون في الغرفة الداخلية).

مائير : سترى كيف تُحلّ عقدة لسانه. لايهزّ المرء إلا مايمسّ رجولته. وهؤلاء البهائم يودعون كل كبريائهم في فروج نسائهم.

إسحق : وإذا لم يتكلّم؟

مائير : لابدّ أن يتكلّم. هذه الوسيلة أكثر فاعلية من التيار الكهربائي. هل تمتشق عصاك، وتبدأ الاحتفال؟

إسحق : دع جدعون يبدأ.

مائير : وودت لو أنك البادئ. لايهمّ.. ستدير الحفلة معي. **(يلفه بذراعه، ويمضيان نحو الغرفة)** لا أدري إذا كان بوسعك أن تفهم ذلك يا بنيّ. هذه الحفلات تثير فيّ نشوة تكاد تكون دينية. نعم.. دينية.

(يدخل مائير إلى الغرفة، فما يعود إسحق إلى العيادة. تبدأ الإضاءة بالانحسار عن المكتب).

إسحق : وهكذا مضت الحفلة حتى نهايتها.

(يرين صوت متوتّر. الدكتور مطرق الرأس).

الدكتور : هل تكلّم الرجل؟

إسحق : أصابته تشنّجات قلبيّة، وانهار قبل أن يتكلّم. بعد الحفلة نقلناه وزوجته إلى المستشفى. لكنه سيعود إلى المركز.

الدكتور : وماذا فعلت في الحفلة؟

إسحق : وما أهمية هذه التفاصيل؟

الدكتور : هل شاركت في الاغتصاب؟

إسحق : لا..

الدكتور : لماذا؟

إسحق : تلك العربيات! من يضمن.. خفت أن تنقل لي عدوى ما.

الدكتور : ماذا فعلت إذن؟

إسحق : (متردداً) كان يجب أن نكسر خصيتيه تماماً. وضعت قدمي بين فخذيه، ورحت أضغط وفق طريقة تعلّمناها من بابا. وكان جدعون شديد الهياج.

الدكتور : وأنت؟ هل تهيّجت؟

إسحق : في البداية.. حين راقبت جدعون وهو يروّضها. ولكني فترت فجأة.

الدكتور : واكتفيت بالمراقبة!

إسحق : ولكن هذا كله بلا معنى.

الدكتور : أرجوك.. تابع. إننا نقترب ماذا فعلت؟

إسحق : كانوا يتوالون عليها. وكان ثمة صراخ وشتائم وموسيقى صاخبة. إننا نستخدم الموسيقى في مثل هذه الحالات، وفجأة بدأ يضيق صدري.. لا.. لا أرى فائدة من سرد هذه التفاصيل.

الدكتور : (بحزم) تابع.

إسحق : إنها توافه يا دكتور.

الدكتور : قلت لك تابع..

إسحق : فجأة بدأ يضيق صدري.. ثم تحوّل الضيق إلى غضب أعمى،

فتناولت شفرة واقتربت منها. أنت تعرف أن العربيّات يحلقن شعر العانة. كان فرجها أملس وملطخاً بسوائل الآخرين. وأحسست أني محموم. انحنيت عليها وبدأت أشقّ أثلاماً صغيرة في لحمها. شطبت عانتها وثديها ثم أوقفني مائير. كان العرق يتصبّب مني. وكان كلاهما قد فقد وعيه.

(يخيّم صمت رصاصيّ ومديد. إسحق منهك ومتوتّر).

الدكتور : هل أنت نادم على مافعلت؟

إسحق : نادم! ولمَ الندم.! كان ذلك جزءاً من واجبي.

الدكتور : ولم تتقزّز مما فعله زملاؤك؟

إسحق : طبعاً لا.. بل كنت ألوم نفسي لأني لا أملك خشونة وعفويّة جدعون. خفت أن يظنّ بابا أني أقل صلابة مما يأمل.

الدكتور : الحالة واضحة يا سيد بنحاس.

إسحق : واضحة..

الدكتور : تقول إنك لم تندم، ولم تتقزّز.

إسحق : ليس هناك ما أندم عليه، أو أتقزّز منه. كانت حادثة عرضية مما يقع لنا كل يوم في عملنا. هؤلاء المخربون أحطّ أنواع المجرمين.

الدكتور : ليتك شعرت بالندم.

إسحق : لا أفهم.

الدكتور : لقد اخترت لاشعورياً التعبير عن ندمك بالمرض. إنك تعاقب نفسك على ما فعلتموه بالمرأة وزوجها، وربما بدأ هذا العقاب وأنت في الحفلة.

إسحق : اسمع يا دكتور.. لقد قرأت شيئاً عن هذه الأمور، ويؤسفني أن أقول لك إنها غير مقنعة.

الدكتور : ركّز انتباهك يا سيد بنحاس. هناك صوت في أعماقك الخفيّة يقول إن ما فعلتموه، ماكان يجوز أن تفعلوه، حتى ولو

أكّدت أن العمل أو الواجب يقتضيه، ولكي تشفي.. عليك إما أن تقرّ بصورة واعية أنك ارتكبت جرماً رهيباً لا يمكن تبريره، وإما أن يتوفّر لك الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال عادلة وجديرة بالاحترام. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يقتنع في أعماقه بشيء كهذا.

إسحق : إني مقتنع بعدالة عملي. وإذا صحّ تحليلك فهو يعني أن أعصابي مازالت تخونني، أو أنني لم أصل درجة النضج الكافية.

الدكتور : نعم يا سيد بنحاس.. في تربيتنا الصهيونية يعلّموننا الكراهية بصورة دؤوبة، ولكنهم لايبالون بالحدود التي يمكن أن تتحمّلها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هي الحدّ الذي يمكن أن يسوّغ كل شيء، ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذي يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟

إسحق : زملائي في العمل لايشكون من شيء. وأنا أيضاً سأعرف كيف أتفوق على ضعفي.

الدكتور : وما أدراك أن زملاءك لايشكون من شيء؟ ربما ليس لديهم ضمير يَخِزُهم، ولكنهم ليسوا أصحّاء أكثر منك.

إسحق : على الأقل.. هناك واحد لايتطرّق إليه الشك.

الدكتور : رئيسك؟

إسحق : نعم..

الدكتور : لعله يعاني من الأرق وأوجاع المعدة.

إسحق : ليست لديه أوجاع. كل هذه التحليلات النفسية لغو أجوف.

الدكتور : لم أجبرك على المجيء..

إسحق : أريد الشفاء.

الدكتور : لايمكن إصلاح ماحدث. أنت لاتستطيع أن تردّ لتلك المرأة كرامتها، أو لذلك الرجل المسكين رجولته.. ولهذا فقد

قضيت على رجولتك. إنها مفارقة غريبة، ولكن هي الحقيقة. شفاؤك يكمن في مرضك. ولعلّه من صالحك.. لكن..

إسحق : أكمل يا دكتور.

الدكتور : لاشيء.. لايمكنني متابعة حالتك. كان يجب أن تدفع ثمناً غالياً لما فعلت. ولكي تكفّ عن دفع هذا الثمن ينبغي أن تدفع ثمناً آخر لايقلّ عنه جسامة.

إسحق : وماهو هذا الثمن؟

الدكتور : لا أدري.. قد تحتاج إلى تحوّل كبير. ربما تضطر إلى هجر عملك أو البحث عن كفّارة صعبة الأداء. ولكنك لم تعد شاباً صغيراً، ولا أحسب أنك تجرؤ على تحطيم مستقبلك وجزء هامّ من شخصيتك.. لا.. لاأستطيع أن أتركك تزورني مرة بعد الأخرى دون فائدة.

إسحق : أنت تصرفني لأني أثير نفورك. ولكن هلّا تساءلت عن سبب نفورك؟ هيا اعترف.. اعترف أنك كنت تجادلني وتقبّح عملي، كي تجرّني إلى الموقف المتشكّك. موقف هؤلاء المخنثين الذين لايكفّون عن التذمر. إذا انتصرنا تذمّروا، وإذا حرّرنا أراضينا خافوا. وفي النهاية ليس لديهم مايقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك. طبعاً أنت لست صهيونياً، وأنت تعيش في إسرائيل، ولم تفعل إلا عرقلة قيامها وازدهارها.

الدكتور : إسمع يا سيد بنحاس. لاتظن أني أخاف من إعلان رأيي. إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل. وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل. وليس في التزمّت الصهيوني الذي تأسّست عليه دولة إسرائيل أيّ عدل. نعم.. إني من هؤلاء المخنثين أمثال موشي منوحين وجوليوس كاهن

وإينشتاين ودويتشر. ونحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحي الذي تغرق فيه دولتنا المعجزة. لا.. لا أقبل ما تفعلونه مهما كانت ذريعته.. والآن يمكنك أن تشي بي، أو تتخذ ما تراه من الإجراءات.

إسحق : كنت أعلم أن هذا ما تفكر به. كم يجب أن أدفع لهذه الزيارة؟

الدكتور : لا شيء هذه المرة.. مع السلامة.

(يخرج إسحق. فترة صمت. الدكتور مجهد وحزين).

الدكتور : وقال الربّ اكتبوا هذا الإنسان عقيماً رجلاً لا يفلح في أيامه ولا يفلح من ذرّيته أحد. جاء يطلب معونتي ولم أستطع أن أقدّم له أي عون. حين روى لي ما فعلوه شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورّط. كان يجرّني معه شاهداً على تاريخنا. على تاريخه وتاريخي. وماكان بوسعي أن أختبئ وراء قناع مهنتي. مافعله لم يكن جريمة فرديّة تخصّه وتخصّ علم الأخلاق، بل كان حدثاً له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعاً. مرضى وأطباء. فحولاً ومخنثين. لا.. ماكان بوسعي أن أختبئ خلف قناع الطبيب البارد والمحايد.. ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب.

(يتلاشى الضوء عن العيادة والطبيب).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث..

(يبدو محمد مذهولاً ومرتبكاً. في زاوية معتمة ثمة وجه مقنّع.. ينبغي أن يتخذ المشهد طابع الحوار الذاتي).

المقنع : هل تحب زوجتك كثيراً؟

محمد : لم أعرف أن الحياة يمكن أن تكون حلوة إلا بعد أن التقيتها.

المقنع : لاشك أن حضنها شهي.

محمد : كيف أقول! لا.. لست خجولاً. نعم.. إنه شهي.

المقنع : وهو دافئ.

محمد : نعم إنه دافئ.. في حضنها عرفت الدفء الحقيقي والطمأنينة.

المقنع : كنت شقياً وضائعاً.

محمد : وكانت البلسم السحري. حنانها داوى شقائي، ووضّح لي دربي.

المقنع : حنان فيه حب وأمومة.

محمد : لعلها تشبه أمي.. لكن الأم نضبت وجفّ حنانها. كان يدفعها نحو الموت، فتمضي مستسلمة وهشة. كانت غريبة بينهم.

المقنع : وأنت أيضاً كنت غريباً بينهم!

محمد : نعم... كنت أحس أني منبوذ أو يتيم. إذا حضر أحسست أني البغل المذعور، وإذا غاب دفعتني قوة إبليسية لعصيان

أوامره ومخالفة أمانيه. بالمخالفة والعصيان كنت أضاعف حالتي كمنبوذ، ولكن تلك كانت وسيلتي للتوازن.. وحين قتل في مخيم الوحدات فوجئت بفراغ رهيب في داخلي. ظننت أن هذا الفراغ هو الحرية التي كنت أبحث عنها. ولكن كم كنت واهماً.. لقد باغتني ظله وأنا أروز حالتي الجديدة.. ثم لم يفارقني حتى التقيت امرأتي.

المقنّع : وإذن ماذا تنتظر!

محمد : أنتظر!

المقنّع : لماذا لا تأتي بها؟

محمد : لم يوافقوا.

المقنّع : أنت تعرف أن موافقتهم سهلة. إذا كانت سهام هي السعادة التي تحميك من القلق وتهديد الأشباح، فإن كل ماتبذله من أجلها رخيص.

محمد : نصحوني أن أعمل هناك.. وأنا الآن أعمل في ورشة بناء في تل أبيب. خاصمتني أختي التي تربي طفلي.. ولكني لن أتراجع.

المقنّع : هذه بادرة طيبة يمكن أن تدعهما بخدمة صغيرة، وتحصل على الموافقة.

محمد : أهي فعلاً خدمة صغيرة؟

المقنّع : إنك تتردد..

محمد : لا أدري.. رغم كل شيء.

المقنّع : إنك تتردد. لأصدق أنك تحبها كما وصفت.

محمد : هذه هي الحقيقة التي لا يمكن الشك بها..

المقنّع : اصغ إلي.. هل تعتقد أن الألعاب الخطيرة التي ينهمك فيها أخوك ورفاقه يمكن أن تفضي إلى شيء؟

محمد : أخي! لاأعلم.. ربما لا.. لا أقرب هذه الشؤون، ولا

أتعاطاها.

المقنّع : ليس عليك أن تقرب هذه الشؤون. راقبهم فقط.

محمد : راقبهم..

المقنّع : ينبغي ألا ندعهم يهلكون أنفسهم.

محمد : راقبهم..

المقنّع : هذا هو كل شيء.

محمد : راقبهم..

المقنّع : إنك ترتعش.

محمد : راقبهم..

المقنّع : سيدفئك حضنها ويداويك.

محمد : إني أرتعش.

المقنّع : لعلك فوجئت.. ستمر الرعشة، وتحصل على الموافقة.

محمد : إن عظامي نفسها ترتعش. أين أنت يا سهام! دفئيني. اقتربي. لا.. تريّثي. إن الثمن فاحش. لا.. لاتناديني.. أقول إنه فاحش.

المقنّع : خذ وقتك وفكر..

محمد : نعم.. سأفكر. إنها حلاوتي الوحيدة. ولكنه فاحش يا سهام. حقاً.. إن الثمن فاحش.

(تتلاشى الإضاءة..)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع..

(إضاءة على غرفة دلال. تظهر الفارعة أولاً، ثم تتبين دلال في حالة غياب).

الفارعة : حين أفرجوا عن دلال أدركت فظاعة ما حل بها. استلّوا شبابها، ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم.

(تكشف الإضاءة دلال وهي في حالة غياب).

الفارعة : دلال.. احكي لي. ماذا فعلوا بكِ.

(صمت)

دلال : أين الطفل؟

الفارعة : إنه نائم.

دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.

الفارعة : حدثيني.. فضفضي عن نفسك.

(صمت).

الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمَّ سألوك.

(صمت).

دلال : هذه الرائحة! هذه الرائحة!

الفارعة : أية رائحة؟

دلال : رائحة لا تزيلها عطور مصر والشام، ولا تغسلها مياه الأردن والفرات.

الفارعة : هل أهيء لكِ الحمّام؟

(صمت)

الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟

دلال : لايُجبر إناء الخزف إذا كُسر.

الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟

دلال : لا يستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.

الفارعة : ولكن ماذا جرى؟

(صمت.. تتغير الإضاءة بخفة ومرونة).

الفارعة : خفتُ من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.

دلال : الأرض ضيقة يا ابنة العم.

الفارعة : إنها أرضنا.

دلال : أرضنا التي لا نملك فيها حتى أجسادنا.

الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.

دلال : الأرض لا تتسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.

الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لكانت كريمة ورحبة.

دلال : الأرض أضيق من القبر، إذا لم يزولوا جميعاً. إما نحن وإما هم.

الفارعة : لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.

دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذبون، وينتهكون كل شيء. من يكونون؟.. هل شققتِ صدورهم، وعرفت ما تخبئ قلوبهم؟ لا.. إما نحن وإما هم.

الفارعة : هذه عبارة متهورة قد تتحول ضدنا.

دلال : لا أحبك حين تتفاصحين.

الفارعة : نحن مناضلون يا دلال، ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية، لا أن نقتل البشر.

دلال : وهل إسرائيل شيء والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا ابنة العم.. في بيت أهلي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أبي يعيش في قوقعة من الثراء والتجارة. يخاف من الثورة والرعاع، ونادراً ماكان يذكر إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزه، ولم يخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليَّ زوجي، ولم يحدثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة؟

الفارعة : لم أفكر في هذا..

دلال : رائحة فظيعة، تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا الموت. ما عرفته يا ابنة العم يكفيني. وأنا الآن جاهزة للانضمام إلى المقاومة.

الفارعة : ألا تتمهلين قليلاً؟

دلال : ولم التمهل؟

الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟

دلال : كل العزم.

الفارعة : كم كنت آمل ذلك! ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.

دلال : لا.. من صاحب الموت لا تليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لكِ منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسي.

عة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.

دلال : يأسي هو قوتي. وهذا العدو لن يوجهه إلا حاقد ويائس.

الفارعة : وإسماعيل؟

دلال : مع تعاقب الفصول.. وإلى آخر الزمن، سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة.. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة..

(تسحب الإضاءة عن دلال، وتتريث على الفارعة..)

الفارعة : وانضمت إلينا. حملت يأسها كالحقيبة وانضمت إلينا. كانت قذيفة تتأهب للانفجار. تروح وتجيء، وحولها ترن تلك العبارة كأجراس كنيسة القيامة. إما نحن وإما هم.

(تتلاشى الإضاءة).

سفر النبوءات / المقطع الرابع

(الدكتور في زاوية نصف مضاءة. ثم يعلو الضوء في مكتب مائير. نرى مائير وإسحق).

الدكتور : جعلوا كرمي خراباً ينتحب إليّ. قد خربت الأرض لأنه لا إنسان يتأمل في قلبه.

(الإضاء كاملة في المكتب. مائير يتحدث في الهاتف).

مائير : هاتوه حالاً. (**يضع السماعة**) إني متلهّف للقائه. لم أشأ تأجيل ذلك إلى الغد.

إسحق : وماذا نأمل منه؟

مائير : لا مفر أمامه. يجب أن يتبرز ما لديه.

إسحق : لم يبق لديه ما يفيدنا.

مائير : بل بقي شيء هام. أتظن يا إسحق أن ما يشغلني هو المعلومات؟ إلى الجحيم بالمعلومات. لدينا ما يفيض عن حاجتنا الأمنية. ولكن ماذا عن كبريائه؟ هل نسمح لهؤلاء القتلة أن يتدرّبوا على الكبرياء؟ هذه بيضة الأفعى التي ينبغي أن نحطمها قبل أن تفقس.

إسحق : لا أظن أنه سيتكلم.

مائير : ستجعله يعوي ويبيض. أريدك أن تقود الحفلة.

إسحق : كنت..

مائير : ما أمرك يا إسحق! هل أنت متوعّك؟

إسحق : لا.. لاشيء على الإطلاق.

(يرن الهاتف، فيرفع مائير السماعة).

مائير : آلو.. أهلاً دكتور.. أتخشى على قلبه! هؤلاء الإرهابيون ليست لديهم قلوب.. لا تخف.. هذه مسؤوليتي. **(يضع السماعة)** كيف حال الوالدة؟

إسحق : بخير يا سيدي. وهي كالعادة تبعث بأصدق تمنياتها.

مائير : كم أرجو أن تكون فخورة بنا!

إسحق : إنها تمتدحك دائماً يا سيدي.

(يدخل موشي ودافيد وهما يقودان إسماعيل. مشيته أقرب إلى الجرجرة وعلى وجهه تعبير فارغ يكاد يتّصف بالعدمية. يتأهب موشي لفك قيوده).

مائير : **(مقترباً)** لاتفكّ قيوده.

دافيد : **(هامساً)** مازال ضعيفاً. لن يتحمّل التيار والمغطس معاً.

مائير : لاشكّ أنهم دلّلوك في المستشفي. انظروا، ألا تبدو الصحّة على وجهه؟ أعتقد أنه صار عاقلاً. لم نكن نريد أن نصل إلى هذا الحد. أخبرتك أن العناد حماقة، ولكنك لم تصغ إليّ. على كلٍّ مافات مات. عرفت بعض فنوننا، ويمكنك أن تجنّب نفسك معرفة الباقي.. هيا.. برهن أنك صرت أعقل **(إسماعيل صامت)** لا تخدع نفسك.. ولا تضاعف حماقتك. هل ستتكلم أم لا؟..

إسماعيل : أتعرف أيها السيد ما هو الموضوع الذي يكدُّ عقول الفلسطينيين؟

مائير : من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون.

إسماعيل : ومع هذا فإن بعض الفلسطينيين يشحذون خيالهم، كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية. وحرياتنا مكفولة. إنهم يحلمون بأنك ذات يوم

ستهدم هذا المخفر الحضاري، وستقبل بالحقوق التي توفرها المواطنية لا القوة. وسنعمل معاً، أنا وأنت، كي تزدهر قابلياتنا الإنسانية فتصور أيها السيد أيَّ أوهام نغذّي؟

مائير : وما هذا اللغو المسهل؟ من توسل إليكم كي تخططوا لنا مستقبل وطننا!

إسماعيل : وطنكم!

مائير : نعم.. وطننا الذي لم تكتمل حدوده بعد.

إسماعيل : ووطني.. أين وطني إذن؟

مائير : وما أدراني! اذهب وفتش عنه عند خصيانك العرب.

إسماعيل : لا.. أيها السيد. هنا وطني وهذه أرضي. هنا ولدنا. وهنا ولد آباؤنا وقبلهم أجدادنا. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق. تبادلنا الترويض والملاينة. وَشَمَتنا ووشمناها. غذّتنا أحياء وتغذّت بنا أمواتاً. اصعد الجليل أو انحدر صوب حيفا، تأمل أسوار عكا أو تفيأ زيتون الخليل، فستجد أينما توجهت وَشْماً له سيماؤنا، وينبئ بتاريخنا. خذ أي زيتونة معمرة، واسلخ لحاءها، فسترى كيف يتدفق في نسغها عصير أجدادي، وعرق آبائي. خلال قرون وقرون ونحن نعجن الطين والماء والهواء بخمائرنا. خمائر البشر الذين يحزنون ويفرحون ويثمرون.. وبهذا التخمر البطيء والمديد تتشكل الأوطان. لا.. أيها السيد هنا وطني. هنا تاريخي وحبل مشيمتي. وينبغي أن يكون التاريخ قرصاناً مختلاً، كي يعطي حق الوطن لنزعة إمبريالية تسترها خرافة، وتحملها دبّابة.

مائير : هل انتهيت! لماذا لا تصفقون له! أرأيتم كيف يفكر الإرهابيون!

موشي : سأضع زيتونك وعظام أجدادك في طيزك.

مائير : اهدأ يا موشي! أتسمي ميثاق الرب والوعد الإلهي نزعة إمبريالية؟ نحن هنا لأن الرب وعدنا، ولأن الرب أعطانا، ولأن الرب أقسم أن يسقط في أيدينا كل أعدائنا. ولن تسقط كلمة واحدة من جميع ما كلّم به الرب بني إسرائيل.

إسماعيل : لكم هو مخيف هذا الرب الذي تحكي عنه! هذا الرب الذي يصطفي العنصري..وتشغفه المضاربة على الشعوب والأراضي.. وتلذه رؤية المجازر. لا.. حاشا الله تعالى أن يريد الظلم. أو أن يكون عوناً للمغتصبين والقتلة!

موشي : **(وهو يصفعه)** وماذا تعلم أيها الوثني عن الرب!

مائير : لا فائدة.. هاهم الإرهابيون. وها هي فصاحتهم.

إسماعيل : حقاً لا فائدة. ولكن هل ستكون هناك فرصة كي أخبرهم أننا نطارد السراب. ستكون هناك حروب، تتلوها حروب، وستُسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع.

مائير : أهذا ما تخططون له! لقد حُسم الصراع أيها الأبله.

إسماعيل : لا.. لم يُحسم بعد أيها السيد..

مائير : إذن.. خذوه وبرهنوا له أن الصراع محسوم. هيا يا إسحق. أريدك أن تقود العملية. ولاتخفف ضغطك حتى يعترف. **(موشي ودافيد يدفعان إسماعيل إلى الغرفة الداخلية. يتبعهم إسحق ومعه مائير.. المكتب فارغ، وثمة بقعة ضوء تكشف الدكتور منوحين).**

الدكتور : يداوون كِسْرَ بنت شعبي قائلين سلام سلام.. ولا سلام. ويلٌ لي على انسحاقي. إن ضربتي لا شفاء منها.. وعلمت أن الصراخ ظل ينبعث من تلك الغرفة حتى انقضى الليل، وانبثق الفجر متعثراً خجلان. فجأة ساد الصمت، وانفتح الباب. **(تتغير الإضاءة في المكتب. من الغرفة الداخلية يأتي مائير مكفهراً.. يتبعه موشي ودافيد اللذان يجرّان إسحق. يرفع**

مائير سماعة الهاتف).

مائير : رشّ عليه قليلاً من الماء يا موشي..

دافيد : إسحق.. إسحق.

موشي : **(وهو يرشّ الماء)** انهض يا دلوعة ماما.

مائير : لا أريد تعليقات.

موشي : اصفرّ وانهار مثل الأوانس.

مائير : قلت لا أريد تعليقات، عندما أضع ثقتي في شخص فأنا أعرف عملي. أتفهم؟

موشي : حاضر يا سيدي.

مائير : **(في الهاتف)** دكتور.. اصعد فوراً. نعم.. نعم. المعتقل. توقّف نبضه. اصعد ولاتماحكني **(يضع السماعة).**

(يستفيق إسحق، وقد بدا عليه الاصفرار والإرهاق).

إسحق : ماذا جرى؟

مائير : **(لدافيد وموشي)** اذهبا ورتبا الأمر مع الطبيب **(يخرجان)** وأنت ماذا دهاك؟ لقد أخجلتني.

إسحق : ولكنه مات فعلاً.

مائير : نعم.. لقد مات فعلاً. والميت فيهم أفضل من الحيّ. ماذا جرى لك؟ إني أكاد أنكرك. أهذا من ربيّت ودرّبت؟ قائد الحفلة يصفرّ ويُغمى عليه كالنساء. شيءٌ مخزٍ.

إسحق : اعذرني.. إني متعب. أعتقد أني مريض.

مائير : سأعطيك إجازة للراحة. ولكن احذر. عليك أن تكون بكامل لياقتك حين تعود.

إسحق : حاضر.

مائير : بلّغ تحياتي للأم.

(إطفاء تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس..

(غرفة دلال، الطفل ممدد على أريكة، والفارعة ترفع بلاطات وتهيء حفرة في أرض الغرفة).

الفارعة : اصغ جيداً يا وعد.. واحتل الصليبيون القدس، وأسّسوا الممالك والقلاع.. وظنوا أن الأمر استقام لهم.. لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعدَّ عدة الحرب، وانقضَّ عليهم بفرسان مصر والشام. والتقى العسكران في حطين. فدارت الدائرة على الصليبيين، وهزمهم صلاح الدين هزيمة.. منكرة.

(تدخل دلال. بطنها متكور وكأنها حامل في الأشهر الأخيرة..)

الفارعة : هل تأكدت أن أحداً لا يتبعك؟

دلال : نعم.. كانت الطريق خالية.

الفارعة : ومحمد! هل رآكِ؟

دلال : لا أظن.. لم ألمحه.

الفارعة : ذلك أفضل.

دلال : لماذا؟

الفارعة : لاشيء.. من الأفضل أن يظل بعيداً عنّا. أسرعي وضعي حملك. المخبأ جاهز.

(ترفع دلال أذيال فستانها، فتظهر حزمة مربوطة على بطنها. تساعدها الفارعة في فك الحزمة).

الفارعة : تمنيت أن يكون حبلكِ الأول أقل خطورة.

دلال : الشباب يتوقعون المداهمات في أي لحظة.

الفارعة : ألم تخافي؟

دلال : انتابتني مشاعر عنيفة ومتنوعة، ولكن الخوف لم يكن بينها. حين وضعت الحزم، وثقل بطني، شعرت أن ثمرة تتفتح في رحمي. ثمرة تشبه الدراق، وتفوقها جمالاً. ثم تكوّر إسماعيل نفسه جنيناً في داخلي. وحين مشيت ببطني الحامل، كانت قدماي صلبتين والأرض مستقرة برخاء. وتخيلت أني أنفجر، وأن ذلك المكان ينفجر، وأن جسدي يتطهر، ويخفق في الفضاء كفراشة نقية. حين كنت أنفجر ارتعشت، واستحيت من اللذة الخفية التي تدافعت في عروقي.

(ترتبان الحزم المستطيلة في الحفرة).

الفارعة : لاتستحي من لذتك. استرخي في مائها وتمتعي.

دلال : هل عرفت مثلها؟

الفارعة : في ليالي القلق والوحشة يزورني عمر. عمر الذي يتنفس ويعانق ويعرق. كيف أشرح لك. إن خيالنا هو مملكتنا السحرية. وعلينا أن نشحذه كي يضفي على الأحلام والصور كثافة الواقع. إن عمر الذي يزورني حقيقي وحي. لذتنا ملموسة، وكذلك تعبنا. وحين نتخيل المستقبل، نلمس تكوّنه كما يلمس المعماري ارتفاع الحائط بين يديه.

دلال : عنيت لذة أخرى. كانت أصابع الديناميت تضغط على سرتي. وكانت اللذة تنبجس عنيفة حين أتصور أني أنفجر بها، وأتبدد حرائق وخرائب. يتداخل الموت بالشهوة، والنشوة بالطهارة. إن الانفجار هو رعشتي.

الفارعة : ما يسيطر عليك هو الانتقام، لا النضال من أجل وطن حر

وجميل.

دلال : الوطن الحر والجميل هو بالنسبة لي حلم غامض وبعيد. أما الانتقام فبسيط وواضح. لو أن كلاً منا غذى سببه الخاص للانتقام، وصمم حقاً على الانتقام، لما كان وضعنا مزرياً ومعقداً.

الفارعة : لايمكن أن نحوّل قضية شعب إلى عمليات انتقام فردية.

دلال : العين بالعين والسن بالسن. تلك هي الشريعة. إذا لم تحرقنا شهوة الانتقام، فإننا سنظل ننزف ونصعّد الأنّات.

الفارعة : أحب تصوراتك العفوية والمستقيمة.

دلال : إن جسدي هو دليلي..

الفارعة : ليت هذا الدليل يكفي.

(تتاهى ضجة خفية قرب الباب. بحركة عفوية تجلس دلال فوق الحفرة، وتخفيها بفستانها. تنهض الفارعة بحذر. تنصت قليلاً ثم تفتح الباب بسرعة. يبدو محمد مرتبكاً)

الفارعة : **(غاضبة)** ماذا تفعل هنا؟

محمد : **(متلعثماً)** لاشيء.. أريد..

الفارعة : ماذا تريد؟.

محمد : أن أرى الصغير.. نعم.. أن أرى الصغير.

الفارعة : دع الأكاذيب.. وقل ماذا تريد؟

محمد : لا تصرخي في وجهي.

الفارعة : أتراقبنا؟

محمد : **(مصعوقاً)** ماذا؟

الفارعة : قل.. أتراقبنا؟

محمد : أختي..

الفارعة : وحق الأخوة والأبوة والبنوة لو صح شكّي..

محمد : أختي.. إني بحاجة إليك.

الفارعة : علامَ تلف وتدور؟ أجبني..

محمد : إني وحيد وخائب.

الفارعة : هذا أعرفه.. ولكن ماذا تفعل هنا؟

محمد : أختي.. أرجوك.. لاتزيدي طريقي عسراً. كل شيء يحتاج إلى قوة، وأنا خائر القوى. لم أستطع أن أكون شهماً، ولم أستطع أن أكون نذلاً. أتعلمين أن النذالة تحتاج إلى قوة داخلية رهيبة!

الفارعة : ما معنى هذا الكلام المضطرب؟

محمد : إني مضطرب.. وإني بحاجة إليك..

الفارعة : ولكن ماذا كنت تفعل؟

محمد : ليكن.. لاأريد مساعدتك.. استطعت دائماً أن أستغني عنكم.

الفارعة : انتظر.. أين تمضي؟

محمد : إلى الجحيم..

دلال : أتظنين!

الفارعة : لا أدري.. إنه بائس.. ومرارته تخيفني..هيا نغيِّر المخبأ..

(تتلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الخامس

(إضاءة على غرفة بيت جدعون. يظهر جدعون نصف عارٍ، وراحيل تتمرغ على الأرض مشعّثة الهيئة، وممزقة الملابس.. يظهر عري جسدها في أكثر من موضع).

راحيل : يا إلهي! إلى أيّ حضيض نهوي! كيف أمكن أن تفعل ذلك؟

جدعون : آسف من أجل الثياب، يمكن أن نرتّب الأمر.

راحيل : سافل.. أهذا ما تأسف من أجله؟ وماذا عنّي أنا؟

جدعون : إذا لم تكتفي يمكن أن نكرّرها.

راحيل : كيف تستطيع أن تكون منحطاً وحقيراً إلى هذا الحد؟

جدعون : إذا واصلت شتائمك، فلن أستطيع ضبط نفسي. إنك شهيّة حين تغضبين **(يداعبها)** وشهيّة حين تقاومين.

راحيل : لا تلمسني. يا إلهي.. كيف سوّلت لك نفسك؟

جدعون : أرجوك لا تلعبي معي لعبة البراءة. كنت تعرفين جيداً ما أريده منك.

راحيل : وهل كنت أعرف أنك ستناله بهذه الطريقة؟

جدعون : هذه الطريقة أو تلك.. ما الفرق؟ أعترف أني أفضل الخشونة في الحبّ.

راحيل : خشونة! ولكنك اعتديت علي.

جدعون : لست من هؤلاء الرجال الذين يذوبون كقوالب الزبدة.

لديك في البيت قالب زبدة، وهذا يكفي.

راحيل : لايهمني ما أنت بين الرجال، ولا أدري إن كنت تحسب منهم. لقد هتكتني.

جدعون : لاتنسي أنك جئت بمحض اختيارك.

راحيل : جئت لأنك وعدتني بالصداقة، ولأني بحاجة إلى معونة صديق.

جدعون : كان ذلك أسلوباً في التودّد إليك.

راحيل : أو قل أسلوباً لاستدراجي، وخداعي.. يا إلهي.. ومن تستدرج؟ إني زوجة صديقك.

جدعون : ومن قال إن زوجك صديقي؟ ليس لدي أصدقاء. القوة هي صديقي الوحيد.. أنا من أجيال الصابرا يا راحيل، من هؤلاء الذين يتعلمون أن الرجل الفعلي لا يحتاج إلى أصدقاء، وأن عليه ألا يثق بأحد.

راحيل : وأغانيك عن الرشد المسلوب، والمشاعر التي لايترجمها لسان!

جدعون : الحب بالنسبة لي هو الرغبة. وكانت رغبتي عارية.

راحيل : يا إلهي.. كيف ورّطتني الأكاذيب! وإلى أيّ حضيض هويت!

جدعون : إسمعي يا حبّوبة، لم تتورّطي، ولم تنخدعي.. كنت تعرفين بوضوح إلى أين أنت قادمة. ربما لم يعجبك الأسلوب. ولكن بالنسبة لي هذا هو الحب.. إنه عنف وسيطرة.

راحيل : لماذا لاتقولها؟ إنه الاغتصاب.

جدعون : حين كنا صغاراً علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعاً. نعم الاغتصاب. وكلما ازددتُ ضراوة، ازداد تقدير بابا لي.

راحيل : بابا؟

جدعون : أعني رئيسنا السيد مائير.

راحيل : وهل تخبر السيد مائير عن غزواتك؟

جدعون : لا داعي لإخباره، فهو يرى بنفسه. إننا نقضي أوقاتاً ممتعة في المركز.

راحيل : أتشتركان معاً في هذه الأمور؟

جدعون : إننا نشترك جميعاً. ألم يحدثك إسحق عن الحفلات التي نقيمها؟

راحيل : إنه لايحدثني عن العمل. أيشارك هو أيضاً؟

جدعون : وماذا تظنّين؟ لكن ليست له قامتي. فيه خَوَر أنثوي. منذ أيام أغمي عليه كالنساء. لا أعتقد أن امرأة مثلك يمكن أن تكون راضية معه.

راحيل : ومانوع الحفلات التي تقيمونها؟ أهي حفلات اغتصاب؟

جدعون : اغتصاب وأشياء أخرى..

راحيل : يا إلهي.. مامعنى هذا!

جدعون : إنه عملنا. نحن نتعامل مع مخلوقات كان يجب أن تُباد لولا الاعتبارات الدولية. إن أمن إسرائيل لايُمس،ولهذا فإن علينا أن نكسر عظامهم كي يبيضوا مالديهم من نوايا وشرور.

راحيل : وهل هذا مرهق؟

جدعون : بل إنه ممتع. الرجل الذي تربّى على الوحدة وصداقة القوة، لايمكن إلا أن يستمتع به.

راحيل : وإذن.. فإن عملكم الفعلي هو التعذيب..

جدعون : إنها اللغة الوحيدة التي يفهمها الإرهابيون.

راحيل : وتستخدمون تلك الوسائل التي نقرأ عنها في الكتب؟

جدعون : عدتنا أحدث من أيّ كتاب. ولدينا أدوات لم نجرّبها بعد.. لكن كما يقول بابا.. ليس هناك ماهو فعّال مثل كسر الخصيتين، أو مباعدة فخذي المرأة أمام زوجها.

راحيل : وبشارك إسحق في هذا كله؟

جدعون : طبعاً. ولكن فيه رخاوة لا تخطئها العين. منذ فترة أتينا بزوجة أحد المعتقلين، وأقمنا حفلة صاخبة. لكن إسحق حاول أن يتفوّق في القسوة. أمسك شفرة وراح يشطب عانتها وثدييها.. ثم قطع حلمة نهدها الأيسر. **(يقترب منها. ومع الكلام يتنامى هياجه)** كرزة حمراء دامية. حملها بين إصبعيه، ثم رماها بنفور وهلع. كان وجهه محتقناً، وعيناه تبرقان في وميض يائس. الموسيقى صاخبة، والدم يسيل مع انحناءات الجسد. وحلمة نهدها كرزة حمراء ملقاة على الأرض.

راحيل : **(برعب)** لا تلمسني.

جدعون : شهيٌ رعبك. شهيٌ غضبك.. شهيّةٌ شراستك..

راحيل : لا تلمسني. ابتعد عني، وحوش. إنكم وحوش. يا إلهي إلى أيِّ حضيض نهوي؟

(يسيطر عليها، وتبدأ عملية اغتصاب جديدة.
تتلاشى الإضاءة).

سفر النبوءات / المقطع السادس

(غرفة الجلوس في بيت بنحاس. يجلس إسحق شارداً. الأم تقرأ في مجلة. وبحركة آلية تمدّ يدها إلى راديو ترانزيستور. تفتح الراديو. ينطلق صوت المذيع.. تعدّل الصوت).

صوت المذيع : قصفت طائرات الجوّالإسرائيلي قواعد للمخرّبين في جنوبي لبنان. وقد أفاد الطّيارون بأنهم أصابوا الأهداف إصابات مباشرة. أصدر الحاكم العسكري أمراً بإغلاق جامعة بيرزيت على خلفية الإضطرابات التي شهدتها المناطق..

إسحق : **(متأففاً)** أرجوك.. أغلقي المذياع.

(الأمّ تغلق المذياع بانزعاج).

إسحق : تأخّرت راحيل.

الأم : إنها تحب التسكّع في الأسواق.

إسحق : أماه.. حاولي ألا تكوني قاسية عليها.

الأم : خير لها أن تعود إلى عملها.

إسحق : لا تستطيع أن تترك الطفل.

الأم : الطفل مسؤوليتي. إني أفعل له كل شيء. وأريد أن أرّبيه كما يجب.

إسحق : وأمّه! ألا يحق لها أن تشارك في تربيته؟

الأم : ليست لديها الخبرة. منذ أيام سمعتها تناغيه بحكايات سخيفة.. البرقوق الذي تزوج الحلاوة. والحلاوة التي وضعت

طفلاً من السكر.. وتفاهات من هذا النوع. أنا على الأقل ربيتك. وحين أراك الآن أشعر بالزهو.

إسحق : لست متأكداً أن لديّ مايبعث على الزهو.

الأم : لا أسمح لك. إياك أن تظنّ أن التواضع فضيلة.

إسحق : أماه.. أودّ لو تحدثينني عن أبي.

الأم : مابك يا بني؟ حالك في الفترة الأخيرة لا يعجبني.

إسحق : حدّثيني عن أبي.

الأم : دع الموتى راقدين في قبورهم.

إسحق : كنت دائماً تتحاشين الحديث عنه. أحياناً يخيّل إلي أن جوزيف بنحاس لم يوجد وأنه مجرّد انطباع عابر من انطباعات الطفولة.

الأم : ذلك أفضل، لأنه ماكان يصلح قدوة لابنه.

إسحق : هل كان سيئاً إلى هذا الحدّ؟ أذكر رجلاً دافئ النظرة يعزف على الكمان. كان المساء ملوناً، واللحن ينساب بين الألوان مثل جدول عسلي.

الأم : نعم.. الكمان. هذا ماكان يحسنه، بينما الرجال يتدرّبون على السلاح، ويخطّطون لمستقبل الدولة، كان رجلاً خائر العزيمة، مثقلاً بالمرارة.

إسحق : ولِمَ المرارة؟

الأم : وما أدراني.! ربما لأنه وافق على المجيء معي. وربما لأنه لم يجد له مكاناً في المجتمع الذي يتأسّس.

إسحق : ألم يكن راغباً في العودة إلى أرض إسرائيل!

الأم : كان موسوساً. لم يشاطرني حماستي للصهيونية، ولكنه لم ينقدها كما كان يفعل بعض المتحذلقين والشيوعيين. ظننت أن دفعة صغيرة تكفي كي أتغلّب على موقفه المتردّد. وحين فاتحني بالزواج، اقترحت عليه أن نهاجر بعد الزواج، وأن

نبني حياتنا هنا، فاستخفّته الفكرة ووافق.

إسحق : هل كنت تحبينه؟

الأم : وأنت.. هل تمارس دور المحقّق مع أمك!

إسحق : تكلمي يا أماه.. أريد أن أعرف.

الأم : ربما أحببته في البداية، أو بالأحرى خُدعت به. جذبني استقلاله ومزاجه الفني. كان يبدو واعداً. ولكن بعد مجيئنا تبيّنت أن ذلك كله قشرة يخفي بها عدميّته.

إسحق : أذكر رجلاً يجلس على الأرض، وحوله أوراق وقصاصات ملونة. كان يصنع طائرة ورقية لها ذنب مدهش.

الأم : نعم.. كان يفتنه اللهو، وكل ماهو عقيم.

إسحق : أذكر الطائرة وفرحتي بها.

الأم : لو تركتك له لأفسدك. آه.. كم كنت خائفة عليك!

إسحق : كيف هاجرتما؟ وكيف عشتما هنا؟

الأم : لم نحمل معنا إلا الكمان وصندوق كتب وملابس. حين وصلنا أرض إسرائيل كنت كالمحمومة أتّقد حماسة، وانفعالاً. أما هو فكان فاتراً لايكفّ عن التذمر. استقرّ بنا المقام في أحد الكيبوتزات. تلك الأيام.. بدت لي الحياة إمكانية مذهلة، فانغمست فيها بفرح وشجاعة. لكن أباك ظل متباعداً، وعجز عن إتقان أيّ عمل. ثم بدأ تذمّره يتزايد حتى تحوّل إلى نوع من العداء المرير. كانت الهوّة تتسع بيننا كل يوم. وكان يعرف أنه يخسرني إلى الأبد.. وربما كان هذا أيضاً من أسباب مرارته.

إسحق : وعلام كان ينصب عداؤه؟

الأم : على كل مانؤمن به، الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القوميّ.

إسحق : هل كان يُبيرُ لك بأفكاره؟

الأم : بل كان يعلنها بوقاحة صاخبة. في فترة من الفترات أصابه ولع الدفاع عن العرب. كان يريد مناكدتنا. صار يجمع أقوال اليهود الموسوسين من أمثاله ويتشدّق بها أمامنا. قال فلان وقال علّان. وكنت أحمرّ خجلاً، وأتميز غيظاً. وذات يوم سمّانا وكالة للرأسمالية اليهودية والعالمية، فأمسكه مائير من ياقته، وقال له بصوت باتر.. ابلعه. فبلع لسانه وسكت. كان جباناً رغم ضوضائه.

إسحق : ألم يكن السيد مائير صديقه؟

الأم : مائير صديقه! كان يحتقره، ويعتبره خطراً على قضيتنا. من أجلي لم يتّخذ ضده أيّ إجراء.

إسحق : وهل مات فعلاً بالتليّف الكبدي؟

الأم : هذا ما قاله الطبيب.. كانت به علل كثيرة، لكن المرارة هي التي قتلته.

إسحق : هل مرض فترة طويلة؟

الأم : لا.. لم يطل مرضه. لازم الفراش نهاراً، وفارق في الليل. كان موته مريحاً ومناسباً.

إسحق : لمن؟.. لك وللسيد مائير!

الأم : للجميع. وأولهم أنت.

إسحق : أنا؟

الأم : طبعاً. كان يهيئ لك تربية عدميّة. عارض إرسالك إلى حضانة الكيبوتز، وحاول أن يحبسك في البيت، كي ينقل إليك تأثيراته الضارّة. كم عانيت كي أبعدك عنه! وكم خفت حين بدأت تتعلّم العزف على الكمان! لولا مائير ما كنت أعرف كيف أتحمّل محنتي معه.

إسحق : أحياناً يخطر لي أن السيد مائير هو أبي الفعلي.

الأم : إسمع يا إسحق. لا تحسب أني سأتصنّع الحياء أمامك. أنت

من صلب جوزيف بنحاس، ولكن كنت أودّ بكل جوارحي لو أنك من صلب مائير. وعلى كل إذا كان الأب هو الذي يربّي، ويساعد الابن على بناء شخصيته، ومستقبله، فإن مائير هو أبوك الفعليّ. لقد قاسمني مسؤوليتك، وعلّمني كيف أصوغ حياتك ومستقبلك.

إسحق : لماذا لم تتزوّجا بعد موت أبي؟

الأم : لأن ما بيننا يسمو على أي عقد أو زواج.

إسحق : هل فضلتما العلاقة الحرّة؟

الأم : ربما صار من حقك أن تعرف. لايوجد مايشبه علاقتنا يا إسحق. بعد فترة من إقامتنا في الكيبوتز التقيت به. كنا نحضر اجتماعاً للحركة. ونهض أمامنا شابّ ملكي في وقفته وقامته. كانت لحظة خارقة. رأيت سليل داود يهب من بين الأموات متلفّعاً بالسحر والجمال. كان مهاجراً جديداً. وحين قُدّمت إليه، تملكتني رعشة، وقلت في نفسي هذا بوصلتي إلى وطني ومجدي.. وسرنا معاً.

إسحق : إذن كانت النزاهة تقتضي، ألّا تبقي مع أبي؟

الأم : تلك كانت رغبتي، ولكن مائير كانت لديه فكرته الخاصّة عن النقاء.

إسحق : وما هذه الفكرة؟

الأم : آه.. كيف أشرح لك. الأفضل لو تركنا هذه الذكريات.

إسحق : لا.. لا نستطيع أن نتركها قبل أن أعرف.

الأم : إنك تقلقني هذه الأيام.

إسحق : وضّحي لي يا أماه.. أيّ نوع من العلاقة كانت تربطك بمائير؟

الأم : أحبّني كما أحب الربّ إسرائيل. وأحببته كما يحب اليهوديّ المسيح. كان حبّا صياماً ومكابدة.

إسحق : لم أفهم شيئاً.

الأم : كان مائير يفكر أن حلمنا لايحقّقه إلا جيل مفعم بالوجد والطهارة. كان يقول ينبغي أن نكون روحاً شفافة كالفجر، صلبة كالنصل كي تكتمل المعجزة.

إسحق : أية معجزة؟

الأم : إسرائيل ومجدها. نحن جيل تعّهد أن يصحّح تاريخاً طويلاً من الخطأ والآلام. وعلينا أن نكتشف في أعماقنا ينابيع قوة بكر. لأن المعجزة لا تبنيها إلا قوة بلا خطيئة. هكذا كان يتكلّم.. وكنت أحسّ أني كائن أثيريٌّ يطفو فوق حلم.

إسحق : هل كان يؤمن بذلك فعلاً؟

الأم : كما يؤمن بقضيته.

إسحق : وأنت؟

الأم : حين كنت أصغي إليه، كنت أحسّ أني في حضرة نبيّ. نفذ إيمانه إلى أعماق روحي، فبدأت أرّوض جسدي، وأتعلّم لذة المكابدة والتسامي.

إسحق : وأبي؟

الأم : هجرت فراشه إلى الأبد.

إسحق : وحافظت مع مائير على طهارة العلاقة؟

الأم : مرة.. ولكن مالنا وهذا الحديث!

إسحق : مرة..

الأم : مرة كدنا نضعف. أو للحقّ، أنا التي ضعفت. ويبدو أننا تورّطنا بصورة مزرية. حين انتبه، هبَّ واقفاً وقال ببرود غاضب.. أخطأت أورشليم خطأً فلحقها الطمث. ومكرّموها ازدروها لأنهم رأوا سوأتها. آه.. تمنيت لو تنشقّ الأرض وتخفيني عن عينيه. لقد انكسر جمالي، وفقدت حظوتي في قلبه. قال مازالت فينا أرجاس. وبعدها

لم يخلُ بي أبداً.

إسحق : ولهذا انقطعت زياراته؟

الأم : ولكن حبّنا ظل حياً.

إسحق : حبٌ عصابي وعاقر.

الأم : إنه الحبّ الذي بنى المعجزة.

إسحق : معجزة لا تفرح ولا تنجب.

الأم : إياك أن تقول ذلك. تطهّرنا، وكابدنا لكي تفرحوا أنتم وتنجبوا.

إسحق : ألا يمكن أن يكون مائير؟

الأم : أن يكون ماذا؟

إسحق : لاشيء.

الأم : إسمع يا بني. إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحقّقت معجزة إسرائيل. عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته. وبطولاته في الأرغون مأثورة. أنتم جيل مدلّل، لأنكم حظيتم بآباء مثل مائير. لو تعلم بأي دأب وحنّو كان يخطّط لمستقبلك. وها أنت الآن تعيش ذلك المستقبل. عمل خطير، ورئيس كالأب. لقد نجح رهاننا، وأرجو أن ترقى السلّم الذي رفعه لك مائير بما يليق من التفاني.

إسحق : نعم... لقد خطّط لكل شيء، ولكن لم يخطر لأيّ منكما أن يسألني، إذا كنت أريد هذا العمل..

الأم : وكيف لا تريده.. إنه واحد من أجل الأعمال في دولتنا. إنك العين التي تحمي هذه القلعة التي بنيناها. ولا يتاح للكثيرين هذا الشرف، وهذه الرتبة.

إسحق : عملنا شاقّ يا أمّاه.

الأم : هذه النغمة المتذمّرة جديدة علي. إن إحساس الأم لا يخطئ. هناك شيء ما لايسير. قل لي مابك!

إسحق : إني متعب.

الأم : سأحضر لك قرصاً فوّاراً.

إسحق : لا.. لا.. التعب هنا.. في أعماقي. لم أعد متأكداً أن ما نقوم به جليل.

الأم : من المؤكد أنه جليل.. إن الإيمان أقوى من الحقيقة يا إسحق. ولايجوز أن يتزعزع إيمانك لئلا تضيع. أخشى أن يكون ذلك من تأثير زوجتك. هل تحدّثها عن عملك؟

إسحق : لا.. إنها لاتعرف شيئاً.

الأم : هذا أفضل، فهي كائن هش! **(صراخ طفل)** آه.. استيقظ حبيبي. إني قادمة يا داوودي.. إني قادمة يا ملكي.

(تهرع الأم خارجة)

إسحق : متعب ومشوّش. أذكر رجلاً عذب الوجه، بارع اليدين، يتناول المعجونة ويصنع منها أرنباً، وشجرة، وكماناً.

(تعود الأم حاملة الطفل).

الأم : ملكي غاضب.. عفوك.. عفوك.. تقلّد سيفك على فخذك، وبجلالة اقتحم.. نعم.. نعم.. هذا بابا **(تعطي الطفل لإسحق)** لاعبه قليلاً ريثما أحضر الماء والحليب.

(تخرج الأم. إسحق يناغي الطفل. تدخل راحيل مشعّثة الهيئة وملتفّة بمعطفها).

إسحق : أين كنت؟ كدت أقلق عليك.

(تنتزع الطفل منه، وتنزوي في ركن قصيّ. تدخل الأم).

الام : **(مقتربة من راحيل بخطوات حاسمة)** يجب أن أغيّر له، وأرضعه **(تحاول راحيل التشبّث بالولد. الأم تحاول انتزاعه من بين يديها)** إنه مبلّل وجائع. تعال يا ملكي تعال **(فجأة تتخلّى راحيل عن الطفل بحركة يائسة.. تحمله الأم، وتمضي به)** شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي

شعبك وبيت أبيك.

إسحق : (يقترب من راحيل) لماذا تأخّرت؟

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : (يلمسها) ماذا حدث؟

راحيل : (مرتاعة) لا.. لا تلمسني.

إسحق : ماذا هناك؟ ولم هذا الهلع كلّه؟

راحيل : لاتلمسني.

إسحق : هل تتقززين مني؟ كنت أعلم أنك لن تتحمّلي الأمر. لا ألومك. شابّة بمثل حرارتك لايمكن أن يرضيها زوج كالأخ.

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : أعرف أنك تقاسين. وأن حياتنا تتدهور. ولكن.. كنت آمل ألا تتخلّي عني. لو تعلمين كم أنا بحاجة إليك! لا.. لا أحاول أن أستدرّ شفقتك، فالشفقة تزيد وضعنا زيفاً. إني وحيد.. وكم هو فظيع أن يكون الرجل وحيداً مع عجزه.. ألا تقولين شيئاً؟

راحيل : يا إلهي، إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : إذا كان هناك رجل آخر، فإني أستطيع فهم ذلك. هناك ثمن يجب أن يُدفع. (مستدركاً يحاور نفسه) ولكن ما مبرّر أن يكون هناك ثمن! ما الخطأ! إننا نقوم بواجبنا. ألم يعلّموني أن أكون حادّاً كالموس؟ وحيداً وقاسياً كالخوف؟ ألا نعرف أن كل شيء سيتقوّض إذا تركنا العطف يتسرّب إلى قلوبنا.. إذن لماذا الثمن؟ من أجل بعض المخربين العرب! أليس العربي الطيّب هو العربيّ الميّت! فعلام الندم إذن!

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : حقاً.. لقد هوينا. كم كنا سعداء قبل ذلك! أتذكرين أوقاتنا الجميلة.. ذلك المساء حين اشتعلت الرغبة في جسدينا ونحن

في الحديقة. وما فعلناه في السينما. و.. كنّا سعداء فعلاً. والآن.. أيّ خراب! كان مائير يريد أمي بلا طمث. أتصوّرين! تحابّا سنوات ولم يحدث بينهما شيء. هي قالت لي. والجميع ينظرون إليه كما ينظرون إلى الرجل الإله. أشمّ رائحة كذب وعقم وخواء. أعرف أني أفقد تقديرك لي، ولكن يجب أن أبوح بما يجيش في داخلي. إني في نفق لايبدو له مخرج. عملنا كريه يا راحيل. هو ضروري، إلا أنه كريه. تعبت، ولم أعد أحتمل. إني طبيعة هشّة. نعم. أقولها لك بصراحة. إني ابن أبي. منذ لحظات كانت تقول أمي إن موت أبي كان مناسباً ومريحاً. هو الآخر كان طبيعة هشّة. لايجوز أن نعطف على أعدائنا. هذا أدركه. ومع ذلك فإن تغذية الكراهية تستنفد القوى كتغذية الحب، لا أدري عما أتكلم. إن ذهني مشوّش يا راحيل. ولكن يجب أن أتكلم، حتى ولو ازداد نفورك مني. إنك لا تعرفين الأشياء الفظيعة التي نفعلها كي نحافظ على أسطورتنا. اسعفيني بكلمة.

راحيل : أريد أن أتقيأ.. يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!

إسحق : هل بلغ النفور هذا الحدّ! ذهبت إلى الدكتور منوحين. لقد شخّص لي مرضي. إنه نوع من عقاب النفس. إنه تعبير جسدي عن ندم خفيّ؟ طبعاً لاتستطيعين أن تفهمي ذلك. فأنت كالجميع تعتقدين أن كل مايحقّق نجاحنا هو نظيف ومشروع. وإذن فعلامَ الندم!. كان علينا أن نقوم بعمل رهيب يا راحيل. هناك مخرّب عنيد لا يريد أن يعترف. وطلب مائير أن نضغط عليه بطريقة مفزعة. جئنا بزوجته، و.. حطّمنا رجولته. إنه الآن في داخلي يعاقبني ويعوّق رجولتي.. أو هناك إنسان في داخلي يتولى عقابي. إنسان آخر.

راحيل : (تصاب بالفواق وكأنها ستقيأ، ثم تهدأ) يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!

إسحق : لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها في المزبلة. كان رجلاً له عينان مروّعتان، ووجه تتكلّم ملامحه وتصرخ. كان إنساناً.. وقبل أيام مات بين يديّ. كابرت أمام الطبيب. ولكن ماالفائدة! لم تقنعني كل التبريرات. ولم تهدّئني دروس الكراهية التي حفظناها. تستطيعين كإسرائيليةأن تحتقريني، ولكن أقول لك دون مواربة. إن هذا فظيع، وإني أتقزّز من نفسي. لا أحتمل هذا العمل. ولا أريده. ساعديني يا راحيل. أريد أن أخرج من هذا النفق المظلم. ربما لم تفت الفرصة.. آه.. ليتنا نبتعد.. نبتعد ومتاعنا طفل وحب وكمان.

الأم : (داخلة) لماذا تحطم نفسك يا بني؟

إسحق : أمي! نعم.. تعالي أنت أيضاً. هل سمعت اعترافاتي كلّها؟

الأم : سمعت ما سمعت. أسألك.. لماذا تحطّم نفسك؟

إسحق : بل أحاول لململة حطامي يا أماه. إننا نتشوّه، ونحن نشوّههم.

الأم : لن تزيدهم تشويهاً. وماتفعلونه أقل مما أوصانا به الربّ.

إسحق : ربما لم يتخيّل الرب أننا سنطوّر فنون التعذيب إلى هذا الحدّ.

الأم : لاتجدّف. أوصانا الرب ألّا نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

إسحق : كان عليه أن يخلقنا على نحو آخر، إذا كانت تلك وصيته.

الأم : العيب فيك وليس في خلقه. ومن المخيّب أن أكتشف أن مابذلته خلال هذه السنوات لم يصلح ذلك العيب الوراثي. تلك جرثومة أبيك، ولن نسمح لها بالتكاثر والنموّ. لحظة الضعف هذه يجب أن تمرّ.

إسحق : لن تمرّ!. فالشكوك تنخر روحي.

الأم : إلامَ ترمي بحقّ الرب؟

إسحق : لست مقتنعاً أن مانفعله عادل.

الأم : مادام ضرورياً لمنعة إسرائيل ومجدها فهو عادل.

راحيل : وهل ضروري لمنعة إسرائيل ومجدها أن أغتصَب أنا أيضاً!

إسحق : ماذا تقولين؟

الأم : **(باحتقار)** وماهذه القصّة أيضاً؟

راحيل : لقد اغتصبني زميلك الفعال جدعون.

إسحق : أعيدي ماقلت.

راحيل : لقد اغتصبني جدعون.

إسحق : يا إلهي.. حقاً إلى أي حضيض نهوي!

الأم : الزنى شيء، والاغتصاب شيء آخر.

راحيل : اغتصبني كما يغتصبون العربيات أثناء عملهم المجيد. حدّثها عن حفلاتكم يا إسحق. حدّثها عن حلمة النهد المبتورة.

إسحق : يا إلهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي!

الأم : زانية..

راحيل : أنت يا امرأة الحليب الفاسد. كنت أحاول مساعدة ابنك، وهذا مانالني. **(تفتح معطفها، فتظهر ثيابها الممزقة وخدوش جسدها)** انظري جسدي وثيابي يا مرضعة الذئاب. ذئاب ضارية في بريّة هجرها الله تقرّزاً.. تقرّزاً.

(تضع يدها على فمها لتمنع اندلاق القيء، وتهرع خارجة).

إسحق : يا إلهي إلى أيِّ حضيض نهوي!

الأم : كنت أعلم أن هذه المومس ليست منا **(تداعب شعره)** اصغِ إليّ يا بني. لن نتركها تهدم كل مابنيناه.. تعالَ.. تعالَ إلى حضن أمك **(إسحق يقاوم)** منذ زمن طويل لم نقرأ سيرة الميلاد والبطولة. استرخِ يا بني دع أمك تهدهدك، وتحكي لك ماتحتاج إلى سماعه.

(إظلام تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع السادس..

(إضاءة على مشهد مظاهرة.. صياح وإطلاق رصاص. الفارعة ترنح.. إنها مصابة. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد..)

الفارعة : رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لايركض هذا الولد! اركض.. اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من الجنازة. الله أكبر. عاد إسماعيل في تابوت مسمّر. لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء، وأن نرى التعبير الأخير على وجهه. رصاص. لاشك أنه رصاص. جنود مقنعون ومدججون بالسلاح. وسط الدموع كبّرنا وهتفنا. كانت الجنازة مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب. ريقي جاف. أين دلال؟ لم تبكِ. ولكنها انفجرت كالديناميت. اتسعت المظاهرة. وبدأت الصدامات. ساقاي ألين من القطن. إني عطشانة. الجنود مقنعون ومدججون بالسلاح. رصاص وغيمة سوداء. عاد أخي وابني الذي لم ألده في تابوت. وعمر.. **(تتداعى ببطء)** آه يا عمر.. إني عطشانة. ودلال.. لماذا لا تسمعني؟. رصاص.. يارب.. إنها دلال.. وقامتها تسمو وتعلو.. هي الفارعة يا إسماعيل.. انظر إليها.. إنها تتقدم وحولها زوبعة من الرنين..غيمة ثقيلة.. أريد هواء.. رصاص، وتابوت، وعتم.. أسمع الرنين حول

دلال. كانت محقة. لاتحبي المتفاصحين يا دلال؟. لاتحبي الموظفين وتجار الكفاح. أريد ماء.. رنين.. رصاص ورنين.. إمّا هم.. وإمّا نحن.

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصمّ).

سفر النبوءات / المقطع السابع

(ضوء ينير ركناً يظهر فيه إسحق وراحيل).

إسحق : هل خسرنا كل شيء؟

(تهز راحيل كتفيها بحركة عاجزة ومتعبة).

إسحق : هل خسرنا كل شيء يا راحيل؟.

راحيل : ربما..

إسحق : هل نستسلم بهذه السهولة؟

راحيل : لم يبق ما نقاوم من أجله.

إسحق : إني بحاجة إليك. لو وقفت إلى جانبي فقد نجد مخرجاً من هذا النفق.

راحيل : لا أستطيع.

إسحق : لماذا؟ هل انطفأ حبّك تماماً؟

راحيل : إني مكسورة، وأحتاج من يجبر كسوري. لا.. لا أستطيع مساعدتك.

إسحق : لاتظنّي أني سأترك جدعون يفلت بفعلته. لا أريد أن أكون أخرق، ولكني سأصفّي المسألة.

راحيل : لايهمّني الأمر. معدتي تجيش. لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا كله.

إسحق : هل اتخذت قراراً ما؟

راحيل : ربما..

إسحق : ماهو؟

راحيل : قد ألبي دعوة عمتي. كلانا الآن محتاج للآخر.

إسحق : ونحن.. أنا والصغير محتاجان لك أيضاً.

راحيل : ليس لديّ ما أقدمه لكما.

إسحق : أتتخلّين عن الصغير أيضاً؟

راحيل : ملعونة تلك الساعة التي أنجبته فيها. ألم تنتزعه أمك مني؟

إسحق : إني أفهم ما تعانين. أعرف أن الأمور تعاقبت بصورة مريعة، أمي ومرضي وجدعون.. ولكن أعطينا فرصة. كنا زوجين متحابين وأنجبنا ثمرة جميلة. دعينا نعالج أمورنا بتروٍّ.

راحيل : سأجنّ لو بقيت هنا. هذا الغثيان.. وهذه الكوابيس.. إني أتدلّى في فراغ مرعب.

إسحق : سأترك العمل، وأنتقل إلى وظيفة مدنيّة في الخارج.

راحيل : هذا شأنك.

إسحق : يمكن أن نسافر معاً. أن ننقذ أنفسنا ونبتعد.

راحيل : ستكون أمامنا فترة طويلة حتى تلتئم الجراح، وقد لا تلتئم.

إسحق : دعينا نجرّب.

راحيل : جرّب إذا شئت ولكني لن أبقى هنا.

(تنقبض ملامحها. إنها تغالب الغثيان).

إسحق : هل صمّمتِ؟

راحيل : نعم..

إسحق : أمهليني قليلاً.

راحيل : لا أحتمل هذا البيت. لا أحتمل رؤيتك. لا أحتمل أمك، لا أحتمل جسدي، وهذا الغثيان.. لا.. ينبغي أن أهرب، وإلا نفقت كما تنفق الكلاب.

(تضع يدها على فمها، وتهرع إلى الداخل).

إسحق : ماذا ينتظر المسيح حتى يظهر؟ لا فائدة من المماطلة.

(يخرج إسحق.. تبدأ الإضاءة بالخفوت تدريجياً.. تدخل الأم وهي تدفع مهد الطفل أمامها).

الأم : وأقبل جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون. فقطع معهم الملك داود عهداً في حبرون أمام الربّ، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل. وأخذ داود حصن صهيون وأقام في الحصن، وسمّاه مدينة داود. وكان داود لايزال يتعاظم والربّ إله الجنود معه.

سفر الأحزان اليومية / المقطع السابع..

(الفارعة مضمدة وممددة على سرير مستشفى. تجلس دلال على طرف السرير..)

الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.

دلال : وكيف وجدت الموت؟

الفارعة : الموت حق. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟

دلال : قرأنا الفاتحة مرات. وفجأة انتفض بدنك، وقرر أن يحيا.

الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص..

دلال : أنت أغلى مما تتصورين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم!

الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟

دلال : كنت بحاجة إلى دم كثير، فتدافع الشباب للتبرع. الآن.. كل الدم الذي يتدفق في عروقك شاب.

الفارعة : هم أحوج إلى دمائهم من عجوز مثلي.

دلال : الدم يعوَّض أما الفارعة فلا تعوض.

' عة : حماكم الله.. وأنتِ يا دلال.. هل تجاوزت المحنة؟

دلال : لا أريد أن أتجاوزها.. إنها تزيد خياري يقيناً ووضوحاً.

الفارعة : في غيبوبتي رأيتك كالشجرة المباركة، فرعك في السماء، وجذرك في الأرض.. كنت تمشين وخلفك أهازيج وعبارات ورنين. وقلت لإسماعيل.. انظر إليها.. لم تكسرها اللوعة.

دلال : ألم نتعلم معاً كيف نتغلب على الموت والغياب!

الفارعة : نعم.. هذا ماتعلمناه.. أن نحضن الموت، ونواصل الحياة. كم عدد الضحايا؟

دلال : ما حان الوقت كي نحصي ضحايانا.

الفارعة : ماذا تعنين؟ أخبريني.. ماذا يجري.

دلال : إنها تشتعل وتمتد..

الفارعة : هل تمتد فعلاً؟

دلال : نعم.. من بيرزيت إلى غزة.. ومن الخليل إلى القدس.

الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وماذا تخبرينني عن الطفل ومحمد؟

دلال : الطفل بخير، وسأحمله لك في الزيارة القادمة. أما محمد فإن حالته تُوجع قلب الكافر. حبس نفسه في الغرفة.. طالت لحيته وتعفرت هيئته.. لا يأكل، ولا ينام. وعيناه خاويتان. أحياناً ينتفض كالمحموم ويُعول كالمذبوح.. وحين يهدأ، يغطيه العرق وتصطك أسنانه.

الفارعة : هل انقطع عن العمل؟.

دلال : أي عمل!. لقد أشعل ناراً هائلة.. وبحركة احتفالية ألقى بطاقة العمل.. وراح يتفرج عليها كالممسوس. أردت أن أحمله إلى الطبيب، لكنه رفض.. نظر إلي نظرة غريبة وانخرط في البكاء.

الفارعة : هذا هو مخاضه، وإذا لم تخذله قواه، فسيولد، ويكون ابن أبيه. أرجوك أن تعطفي عليه.

دلال : لا تشغلي بالك.. إننا نتدبر أمورنا.. **(تُخرج راديو، وتقدمه للفارعة)** ولكي تتابعي مايجري، حملت لك هذه الهدية.

الفارعة : واشتريتِ لي راديو!

دلال : إنها هدية منّا جميعاً. ولاتنسي أن الطبيب حذّر من الانفعال والجهد.

الفارعة : لا تخافي علي..

دلال : (هامسة) غداً المظاهرة الكبيرة. يجب أن أمضي الآن.. هل تريدين شيئاً؟

الفارعة : كم أتمنى لو كنت معكم..

دلال : هي أيام وتكونين معنا.

(تقبلها وتخرج. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني من إحدى المحطات العربية..)

الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين. حقاً.. هذا مانحتاجه بعض الدم والطحين.

(تلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الثامن

(ضوء على الدكتور منوحين.. وأثناء كلامه يعلو الضوء في المكتب ويظهر إسحق وهو يتسلّق السلم، ويدخل إلى المكتب).

الدكتور : لقد انكسر قلبي في داخلي. ورجفت كل عظامي، وصرت كإنسان سكران وكرجل غلبته الخمر لأن الأرض امتلأت بالفجار، وناحت من أجل اللعن ويبست مراتع البريّة، وصارت مساعيهم غير مستقيمة، وجبروتهم شريراً. لم يكن أمام شخوص هذه القصّة أي سبيل للتراجع، وكذلك الأمر بالنسبة لي. عرفت كل شيء، ولا أستطيع أن أخفيه.

(يخرج الدكتور.. ويدخل إسحق إلى مكتب مائير).

مائير : أرجو أن تكون قد استعدت لياقتك. على كلٍ جئت في وقتك. قمنا باعتقالات جديدة، والمركز يغصّ بالزبائن.

إسحق : سيدي.. لقد اضطربت حياتي فجأة، وإني بحاجة إلى بعض التفهّم والعطف.

مائير : وما هذه القصّة الجديدة.. هل الوالدة بخير؟

إسحق : الوالدة بخير، ولكن زوجتي.. وأنا.. لن أصدّع رأسك بالمتاعب. جئت ألتمس منك معروفاً.

مائير : ما هو؟

إسحق : لولا اضطراب حياتي ما فكرت في طلب كهذا. هل يمكن

أن تساعدني في الانتقال إلى وظيفة في الخارج؟ لايهمني البلد. المهم أن أسافر فترة من الزمن، وأن أكون نافعاً.

مائير : هذه نغمة مفاجئة. المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون نافعاً فيه هو هنا في إسرائيل. وفي هذا المركز بالذات.

إسحق : إن زوجتي تعاني من اضطرابات عصبية حادّة.. وربما..

مائير : **(يقاطعه)** أنت تعرف أننا لا نحبّ الذين يقصّون حكايات. لن تخبرني عن بيتك ما لا أعرفه. أتظن أني لا أفهم ماذا يجري لك؟ فجأة بدأت ترى هؤلاء العرب بشراً. ولكن تذكّر ماذا يفعلون والخطر الذي يمثّلونه. لو تمكّنوا منا لأبادونا. هل تشكّ في ذلك؟

إسحق : طبعا لا..

مائير : كيف تشفق عليهم إذن!

إسحق : أنا أشفق عليهم!

مائير : أعرف كيف أميز جرثومة الإشفاق. الإغماء الذي أصابك، وهذا الطلب الآن. أقول لك.. احذر يا بني. إن الشفقة في عملنا خطيرة كالخيانة.

إسحق : في لهجتك رنّة تهديد يا سيدي.

مائير : تعرف أني أحيطك برعاية خاصة. إنك ربيبي. ولا أريد أن أراك تضعف. هنا.. نحن صمام الأمان للدولة اليهودية، ولذا ينبغي أن نكون مادّة فولاذية لا تلين ولا تنكسر. زملاؤك ليسوا أفضل منك، فلا تترك الجو يخلو لهم. أثبت من أنت. أتريد أن تخيّب أملك؟. **(يرنّ جرس الهاتف)** وتخيّبني معها. **(يرفع السماعة، ويتكلم في الهاتف)** آلو.. نعم، تجدّدت أعمال الشغب.. قلت لكم لا حلّ إلا بالاستيطان المكثّف والترويع.. علينا أن نضغط، ونضغط حتى نجبرهم على الرحيل.. الأمم المتحدة زريبة لا تصلح حتى للخراء.. ستنتهي

التحقيقات خلال أيام، ونقدّم لكم كل المعلومات.. لا.. اطمئن.. طيّب.. مع السلامة **(يضع السماعة)** هل سمعت؟ القتلة يواصلون التخريب، وأنت تأتيني بهذه القصص التي تبعث على النوم. هيّا.. خذ هذه الملفّات الثلاثة، وابدأ العمل.

إسحق : أخشى أني لا أستطيع الآن.

مائير : هل تعي ما تقول؟ هذا تمرّد.. هذا عصيان.

إسحق : لأني ربيبك أرجوك أن تساعدني. بيتي ينهار. ومن حقّي أن أحاول إنقاذه. إن السفر خشبة الخلاص لي ولزوجتي.

مائير : حتامَ أغفر لهذه الجماعة المتذمرة عليّ؟ طلب غير معقول، ولو شاع أمره لثار حولك لغط وشكوك.

إسحق : لايهمّني ما يثور حولي. أريد أن أحمي أسرتي.

مائير : أسرتنا الفعلية هي الدولة لا الزوجة. اسمع يا إسحق. أنت تمرّ في لحظة ضعف لا يبرأ منها إنسان، ولا تحسب أن الدكتور المعادي هو الذي سيساعدك على عبور اللحظة.

إسحق : وتعرف هذا أيضاً؟

مائير : نعم.. وأعرف أنك تثير ضوضاء كبيرة من أجل عضوك التناسلي.

إسحق : إنك تنبش حياتي الخاصّة. إنك تراقبني كأيّ مشبوه.

مائير : ليس هناك حياة خاصة لمن يعمل معنا. إننا نراقبك لكي نحميك من العثرات.

إسحق : وكرامتي! أي كرامة بقيت لي؟

مائير : الكرامة الفعلية هي أن تكون فولاذاً لا تلويه العواطف.

إسحق : أي أن أعذّب وأقتل، كما أتنفّس؟

مائير : إنّك لا تعذّب ولا تقتل، بل تحمي وطنك من القتلة.

إسحق : ولكننا نقتلهم.

مائير : قتل القتلة عدالة وليس قتلاً.

إسحق : ألا نلعب بالتسميات كي تلائمنا؟ نسمّيهم قتلة لكي نسمّي التعذيب والقتل عدالة!

مائير : هل وصلت هذا الحدّ من الانحراف؟

إسحق : لا أدري أين وصلت. كل ما أعرف هو أننا نغوص في الوحل.

مائير : أنت وحدك مَن يغوص في الوحل. لقد فسد إيمانك تماماً.

إسحق : ربما.. لا أدري إن كنت تفهم ذلك. اكتشفت ومن خلال جسدي، أن مانفعله ليس مقنعاً، وأن من نسميهم القتلة، لهم عيون ومشاعر، ويحسّون بالظلم.

مائير : ولم لا تقول إن قضيتهم عادلة؟

إسحق : لم أعد متأكداً أن الحقّ كلّه إلى جانبنا.

مائير : لا.. لايمكن.. هذا تجديف. منذ طفولتي علّمني والدي الذي قتله الألمان وهو ينشد الهاتكفا أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل، وأن يعيدوا تأسيس مملكتها الكبرى. هذا هو الحقّ الواضح البسيط الذي يشبه إشراق الشمس ودورة الأيام. وكل من يعترض سبيلنا يجب أن نزيله بلا رحمة.

إسحق : وهل كان أبي عقبة تجب إزالتها بلا رحمة؟

مائير : ماذا تخرّف؟ إنك مخيّب جداً أيّها الشاب. كم تعبنا، أنا والمسكينة أمّك كي نصوغ منك رجلاً حقيقياً!

إسحق : وهل تظنّ أن علاقة عقيمة غذاؤها الكراهية والقتل يمكن أن تصوغ رجالاً؟

مائير : صدق جدعون.. ما أنت إلا عنّين يبول على نفسه.

إسحق : وأنت.. ما أنت؟ أتظن أن القتل يصنع رجالاً؟ قتلت أبي، وتريد أمي بلا طمث.

مائير : توقف.

إسحق : لا.. لن أتوقف. أأنت تتحدث عن العنّة؟ أتظن أننا لا نرى عنّتك؟ تلك العنّة الفخمة.. العنّة التاريخية التي تتلألأ خلف أقنعة الترفّع والعزلة والقسوة.

مائير : إنك تهلك نفسك.

إسحق : بل أستردّ نفسي. أنظر في عيني إن كنت تجرؤ. **(يدخل جدعون)** أهذا المسلخ المربع هو المكان الذي هيأته لظهور المسيح؟ أهذه هي رسالتنا الروحية؟ **(يشير إلى جدعون)** أمع هؤلاء السوقيين ستبني المملكة المقدسة؟ لاشك أنك تعرف ما فعله هذا الوغد.. وربما هنّأته. يا للحضيض! نعم..هذا هو إنجازك الكبير. لقد أقمت مملكة للحضيض. **(يمدّ كل من مائير وجدعون يده إلى مسدسه)** العبا بالطرّة والنقش على حيازة هذه المأثرة. كلاكما محترف. ولكن.. لو خيّرت، فإني أفضّل أن يقتلني قاتل أبي.

(يرفع مائير مسدسه بيد ثابتة، ويطلق عدة رصاصات، يتكوم إسحق في الأرض).

مائير : شيء محزن.

جدعون : لم يكن إلا ضراطاً.

مائير : دعني وحدي.

جدعون : حاضر.

(يخرج جدعون. يرفع مائير سماعة الهاتف.. يعلو الضوء في غرفة جلوس بيت بنحاس. يركب مائير رقماً. يرنّ الهاتف في بيت بنحاس، ترفع الأم السماعة).

مائير : كان ثمرة فاسدة يا حبيبتي.

الأم : وقطعت الثمرة؟

مائير : لم يكن هناك مجال.

الأم : أحقاً لم يكن هناك مجال!. أصدّقك.. أصدّقك فأنت أدرى.

مائير : هل أستطيع أن أقف إلى جانبك؟

الأم : وكيف أفعل إن لم تقف إلى جانبي؟

(في حركتين متوازيتين يضع كل منهما سماعته).

الأم : ولدي.. ولدي.. وغداً يسألني دافيد عن أبيه فماذا أقصّ له؟ في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة.

(ينطفئ ضوء المكتب، ثم يتلاشى ضوء البيت ببطء متاه).

سفر النبوءات / المقطع التاسع

(ضوء على العيادة.. يظهر الدكتور.. وراحيل التي تجهّز حقيبتها).

الدكتور : وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح. صوت العروس. وصوت العروسة صوت الرحى ونور السراج.

راحيل : أذاعوا أنه مات في حادثة عرضية.

الدكتور : كان ينظف مسدسه وانطلقت رصالة استقرّت في صدره.

راحيل : ولكننا عرفنا الحقيقة.

الدكتور : عرفنا الحقيقة ودوّناها.

راحيل : كانت الجنازة هزيلة.

الدكتور : نعم.. هزيلة كانت الجنازة. بدت الأم جافّة، وليس في عينيها دموع. وكان مائير منتصب القامة، يطفو على وجهه تعبير مترفّع وبارد. أما راحيل فقد انهارت.. واضطررتُ إلى ملازمتها حتى تحسّنت حالها، ورتّبت أمور سفرها.

راحيل : هل دونتَ كل شيء؟

الدكتور : نعم.. وها هي الأوراق.

راحيل : حان الوقت.

الدكتور : هل تشعرين بغصّة من أجل الطفل؟

راحيل : وما نفع الغصّات! هو لهم.. أخذوه، ولن أستطيع استرداده.

الدكتور : يجب ألا تيأسي أبداً من استرداده.

راحيل : ربما فيما بعد.. حين أجمع حطامي.

الدكتور : لاينبغي أن نيأس. انشري القصّة على أوسع نطاق. لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل.

راحيل : أرجو ألا تخذلني قواي..

الدكتور : ستنجحين يا راحيل. يجب أن تنجحي.

راحيل : آه.. هل أشكرك؟

الدكتور : لا.. لا داعي للشكر.

راحيل : أخيراً.. ربحت إنساناً وصديقاً.

الدكتور : اعتني بنفسك..

(تعانقه بانفعال وحميمية، ثم تحمل حقيبتها وتمضي..)

سفر الخاتمة

لافتة: حوار محتمل بين الدكتور أبراهام منوحين وسعد الله ونوس.

(مازالت العيادة مضاءة، والدكتور فيها. يقف الكاتب في بقعة الفارعة).

الدكتور : أين سعد الله ونوس؟

سعد الله : ها أنذا..

الدكتور : بلغنا الذروة، واكتملت هذه الشخصية التي سميتها أبراهام منوحين، فمن أين استقيت ملامحها؟

سعد الله : في البدء كانت أمنية، ولكن مواقف وشهادات بعض اليهود الشجعان أكدت لي أنها ممكنة.

الدكتور : وإذن فأنت تؤمن بأن وجود أمثالي محتمل..

سعد الله : بل مؤكد. إذا لم يوجد أمثالك يصبح التاريخ أفقاً مظلماً.

الدكتور : لعلك تفرط في الثقة.

سعد الله : لاتبدو ثقتي مفرطة، إذا ماتذكر المرء قائمة المفكرين اليهود، الذين رفضوا الصهيونية وقاوموها.

الدكتور : ومع هذا.. هل تعتقد أن بوسعي أن أكون نزيهاً إلى هذا الحدّ؟

سعد الله : من اختار الولاء للعدالة لا للقانون لابد أن يكون نزيهاً.

الدكتور : ولو أدّى ذلك إلى التخلّي عن أهلي وشعبي؟

سعد الله : إنك لا تتخلى عنهم، بل تحاول حمايتهم. إنك تبصر أن الدرب التي يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التي يستهدون بها ورطة. هل تخلّى إرميا عن أهله وشعبه؟ كان لسانه يرعد باللعنات، أما قلبه فكان يتفطّر حناناً.

الدكتور : ولكن من أصغى إلى إرميا؟

سعد الله : سيأتي وقت، وسيصغون. في الفترات الرثّة، من المهم أن تظهر شخصيات تنحّي الأكاذيب، وتطلّ على أفق تاريخيّ جديد.

الدكتور : الشجاعة وحدها لا تكفي. إنك لاتعرف القوة الروحية، التي يحتاجها أمثالي، كي يكونوا يهوداً ومعادين للصهيونية في وقت واحد.

سعد الله : أستطيع يا سيدي أن أتخيّل ما يحتاجه المرء من طاقة كي يتجاوز شرطه. وأنا نفسي شحذت الكثير من طاقتي كي أميّزك، وأقدم صورتك.

الدكتور : أهو شاقّ أن تقدم شخصية مثلي؟

سعد الله : كان ينبغي أن أتخطّى الكثير من الحواجز. الريبة التاريخية التي تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس. نعم.. كان يجب أن أتخطّى هذه الحواجز كلّها كي أقدم شخصية الدكتور أبراهام منوحين.

الدكتور : ولكنه شخصية مفعمة بالرفض والاحتجاج..

سعد الله : ويدرك أن الصهيونية ورطة للعرب واليهود على حدّ سواء.

الدكتور : إذا شئت.

سعد الله : ومع هذا كان عليّ أن أشحذ طاقتي كي أتخطّى الحواجز في داخلي وحولي.

الدكتور : لم أكن أعلم أن تعارفنا محفوف بكل هذه المخاطر. ولكن مادام كل منا يريد أن يتجاوز شرطه، فإني أسألك.. هل كانت النزاهة متبادلة في هذه القصةّ؟

سعد الله : إلامَ تُلمّح؟

الدكتور : أفزعتني تلك العبارة التي ترنّ في المسرحية: «إمّا نحن وإمّا هم».

سعد الله : هل تعتقد أن بوسعنا، أنت وأنا، أن نتعايش مع مائير وجدعون وموشي؟

الدكتور : هؤلاء... لا.. ولكن قد توحي العبارة بمعانٍ متطرّفة ومفزعة.

سعد الله : ليس للعبارة إلا هذا البعد. لا نستطيع أن نخرج من الورطة مادام الفكر الذي يمثّله مائير وجدعون، هو الذي يسود على الضفّة الأخرى.

الدكتور : طيّب.. وماذا عن السجون؟ ركزت على مايحدث في السجون هنا، وتجاهلت مايحدث في السجون العربية..

سعد الله : اسمع.. تردّدت طويلاً قبل أن أكتب هذا العمل، وكان سبب تردّدي هو هذا الشعور المرّ بأن المسرحية قد تبدو ضرباً من المراوغة. نعم يا سيدي.. يجب أن تكون النزاهة متبادلة، ويجب أن أعترف أن السجون على ضفّتنا ليست أكثر رأفة، ولا أقلّ وحشية. ولكن هل تظن أن هذه الأنظمة وسجونها تمثّلنا، أو تشغلها قضية صراعنا مع إسرائيل؟ لا.. يا سيدي. إن مشكلتنا مزدوجة. وإن للصهيونية الآن امتدادها العضوي في النظام العربي الراهن. الذين استسلموا لإسرائيل مائير، والذين يتهيأون للاستسلام، الذين يقمعون شعوبهم ويدوسونها. الذين ينهبون ثروات هذه البلاد ويبددونها..

هؤلاء جميعاً هم بعض امتدادات الصهيونية في الجسد العربي. إن الورطة على ضفتنا معقّدة وإن الخروج منها يقتضي نضالاً مركباً وصعباً. نعم يا سيدي. إن النزاهة يجب أن تكون متبادلة حتى ولو كان ثمنها فادحاً. وهذه الورطة التاريخية لا يمكن تجاوزها إلا بأثمان باهظة.

(يدخل جدعون وموشي ودافيد إلى العيادة..).

الدكتور : والآن كيف تتخيّل خاتمتي في هذه المسرحية؟

سعد الله : فأمر الملك صدقيا أن يودع إرميا في دار السجن، وأن يعطى رغيفاً من الخبز كل يوم من سوق الخبّازين، إلى أن ينفد الخبز كله من المدينة. إنهم يأتون بلطف، يتسمون، ويحشرونك في القميص، ثم يمضون بك إلى إحدى المصحّات.

(يكونون قد قيدوا الدكتور بقميص المجانين..)

الدكتور : وأنت.. ماذا ينتظرك؟

سعد الله : عداوة الصهاينة الإسرائيليين والصهاينة العرب.

الدكتور : إذن.. دعنا نتبادل الإشفاق.

سعد الله : الإشفاق.. وربما الأمل.

(يخرجون بالدكتور.. يخلو المسرح.. إظلام تدريجي).

(ستار)

١٩٨٩

«الاغتصاب» / ملحق وثائقي

حين نشرت مسرحية الاغتصاب، في نهاية عام ١٩٨٩، أثارت نقاشات واسعة، وردود فعل تراوحت بين الترحيب والإعجاب، وبين النفور، ومهاجمة العمل، وكأنه فضيحة أو خيانة.

لم يزعجني ذلك النقاش الواسع، بل اعتبرته علامة على الصحّة والخصب. كما أني تقبلتُ حدة الهاجمين برحابة صدر، ولم تؤذني مواقفهم، إلّا في الحدود التي نمّت فيها عن قراءة مبتسرة ومغرضة للعمل.

وبما أن النقاش كان مستمراً، ومواكباً للتدريبات المتعثرة التي كان يجريها المخرج جواد الأسدي على النص، فقد اقتنعت بعد ندوة مفتوحة وهامة أقامتها مجلة «الهدف» لمناقشة المسرحية، بضرورة تعديل الخط الفلسطيني في النقاط التالية:

١ ـ اختزال الميل الشائع إلى تحويل كل كلام حول القضية الفلسطينية إلى خطاب.

٢ ـ تعميق حبكة الحكاية الفلسطينية.

٣ ـ إضفاء خصوصيات فردية على الشخصيات، وتعميق بعدها الذاتي والإنساني معاً.

وفي هذا المنظور، كتبت الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية، كما وردت في النص الذي تضمنه هذه الطبعة. وقد يُعجب القارئ لو أن هذه الصياغة الجديدة قد أنجزت في أوائل صيف ١٩٩٠، وقبل العرض الذي قدّمه جواد

الأسدي بعدة أشهر. لكن مراوغة الفنان، أو تخاذله أمام ابتزاز النقد، إضافة إلى عنف الهجوم الذي كانت تعرض له المسرحية. كل هذا أدّى إلى تغييب الحكاية الفلسطينية، وتبسيط العمل إلى هجاء سطحي للعدو.

إن الجو الذي أحيطت به هذه المسرحية بعد نشرها، وأثناء التحضير لعرضها، (وهنا لا أعني النقد والحوار، بل المراوغة وسوء الطوية. والقراءة العشوائية) جعلني أهمل الصياغة الجديدة، وأتقاعس عن إرسالها للمترجمتين الإيطالية والألمانية، اللتين كانت تعملان على ترجمتها. والآن بعد أن صدرت الترجمتان، ألوم نفسي، وأشعر بالأسف لأن الترجمتين لم تتضمنا الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية.

وقد وجدت أن من الضروري، ولو من باب التوثيق، أن أنشر في هذا الملحق الحكاية الفلسطينية كما وردت في الطبعات السابقة.

المؤلف.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول

(تظهر الفارعة وهي امرأة فلسطينية ذات حضور قويّ.. تحمل لفّة طفل رضيع، وكيساً مما توضع فيه حاجيات الأطفال).

الفارعة : هم يذبحون ونحن نتوالد. هم ينسفون ونحن ننهض من بين الأنقاض. ما عدنا نولول. وأنا التي كنت نائحة في المآتم أقلعت عن النواح. هذا العالم الأنانيّ لايبالي بالضحايا، ولايميّز العدالة إلا إذا كانت مقاتلة جسوراً. لا.. ما عدنا نولول.. والحقّ لايضيع ما دام وراءه مطالب.

(تدلف إلى غرفة دلال، والإضاءة تتبعها. غرفة فقيرة لكنها نظيفة ودافئة. دلال شابّة وجميلة.)

دلال : ماذا تحملين؟..

الفارعة : اصطحبت معي ضيفاً ساحراً. انظري كم هو جميل!

دلال : من هو؟

الفارعة : طفل يبدأ حياته بلا مأوى.

دلال : وأهله؟

الفارعة : أدخلوا أمّه إلى المستشفى. تداعى قلبها حين رأت منزلها يتهاوى. وزّعنا الذين نُسفت بيوتهم على أهل الحيّ، وأبقيت هذا الصغيرة كي نعتني به معاً.

دلال : وأبوه؟

الفارعة : إنه حيث يجب أن يكون.

دلال : وهذا الطفل البريء يدفع الثمن.

الفارعة : الثمن مقرّر قبل أن يولد. وكما يقولون، من ليس له وطن، ليس له في الأرض مقام.

دلال : ضاع الوطن، وأخشى أننا نضيّع القليل الذي بقي لنا.

الفارعة : إذا ضاع الغالي لايؤسف على الرخيص يا ابنتي.

دلال : كم بيتاً نسفوا؟

الفارعة : ستة بيوت.

دلال : ومنذ يومين خمسة. هل يأتي دوري؟

الفارعة : العراء أفضل من السكن في بيوت الذلّ.

دلال : ولكن ما نهاية هذا كله؟

الفارعة : أن يكون لهذا الأمير وطن وقليل من العدل.

دلال : إنك تحلمين يا خالة.

الفارعة : في حالتنا، الاستسلام أو اليأس كلاهما يعني الفناء. ونحن لانريد أن نفنى.. في عروقنا حياة لن يستطيعوا قهرها.

دلال : لو أن لي إيمانك وقوّتك.! ماذا نفعل؟ هل نطعمه؟

الفارعة : دعي الأمير نائماً. حين يستيقظ سنغيّر له ونطعمه. في الكيس حليب وحفاضات وكلّ مايحتاجه.

دلال : كل صباح كنت أحسّ أني متخمّرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدّثنا عن طفلنا الأول. سمّيته زاهر، وسمّاه جهاد. كنت متيقّنة أن في بطني بذرة تتكوّن. ولكن لم يكن هناك إلّا الفراق.

الفارعة : لاتتحدثي عن الفراق. سيعود، وستتعبين من الإنجاب.

دلال : هل سألت اليوم عن أخباره؟

الفارعة : وحياتك سألت. ما زالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا وفوراً.

دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدّثني قلبي أن إسماعيل ليس

بخير.

الفارعة : دعيك من الوساوس. أنا أعرف زوجك كما أعرف أولادي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنَموا شيئاً من مناطحة الصخر.

دلال : وهذا ما يزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.

الفارعة : هل كنت تفضّلين زوجاً يبَول في سرواله!

دلال : لا أدري ماذا أفضّل. كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه... لم يمض على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمّتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى أحسست أني أضعف من أن أتحمّل سعادتي. لم تهمّني معارضة أهلي، ولا لغط الناس حولي. كنت أفكر فقط في الأيام البهيّة التي سنحياها معاً. هو وأنا وهذا العشّ. لم يخبرني شيئاً. ولم أعرف أن له حياة سرّية هي الأغلى، وهي الأهمّ.

الفارعة : أراد ألا يفزعك، أو ينغص فرحتك. لقد تردّد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.

دلال : نعم.. تردّد طويلاً، وكدت أيأس. كان عليّ أن أواجه أهلي، ولغط الناس، وفوق ذلك تردّده. أحياناً كنت أشكّ في حبّه، فأشعر أن أهلي محقّون وأني رخيصة.

الفارعة : وكان يتنهّد وهو يتحدّث عن حبّه. يحكي لي عن فتاةٍ أهلها من أعيان الضفّة، ويرفضون مصاهرة معلّم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون، ثم يغمغم.. إنها أغلى من أن أورّطها ببؤسي ومخاطري.

دلال : عارضت أهلي، ورضيت خصامهم. وحين ضمّنا هذا العش حسبت أن المستقبل صار ملكي. بدأت أرسم أياماً ملوّنة، وسعادة لاتنضب. ولم يقل لي شيئاً.

الفارعة : ماكان يستطيع أن يقول.

دلال : أو ما كان يبالي. تصرّف وكأن زواجنا حدث عابر في حياته. كان الجوهريّ بالنسبة له هو عمله السرّيّ الذي واصله بعيداً عني. لم يراعِ حبنا، ولم يحسب له أيّ حساب.

الفارعة : لا تظلميه يا ابنتي. كادت عزيمته أن تضعف من شدّة الحرص عليك. كنت خفقة الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش كلما أوصاني بك.

دلال : ومع هذا لم تكفه سعادتنا.

الفارعة : لا أحد يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف.

دلال : كنّا سعداء يا خالة. الليالي أعراس، والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل حلم غامض كالسراب.

الفارعة : ربما حمتك براءتك من رؤية ما حولك. ولكن في ليالي العناق، ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً؟ وأحياناً كان يدق قلبه بعنف. وربما فكّ عناقه، وهمس سأرتاح قليلاً.

دلال : هل كان يروي لك هذه التفاصيل؟..

الفارعة : لا.. كان أعفّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل. وأعرف أن الواقع كان يطارده حتى في الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات. ويدقّ قلبه حين يتناهي وقع أقدام الدوريّة، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدك القواعد والمدن، كان يرى ما لا ترين وكان يعلم أن عناقكما محاصر.

دلال : أكان هذا القلق كلّه يشاطرنا الفراش؟

الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال : ولكنْ حولنا آلاف يواصلون حياتهم، ويعيشون بأمان.

الفارعة : إنه أمان كاذب. لم يغتصبوا بلادنا لكي يوفّروا لنا الأمان. إنهم يريدون الأرض وخدماً تخلّوا عن هويّتهم، وقبلوا العمل بلقمتهم. لا.. ليس الأمان أن نبقى على قيد الحياة. بل الأمان هو أن نحيا أحراراً في وطن حرّ. أتعرفين من علّمني هذا الكلام؟ إنه زوجك ورفاقه. وربما حان الوقت كي تتعلّمي مثلي.

دلال : لم يطلب منّي شيئاً. ونادراً ما ناقشنا هذه القضية.

الفارعة : لقد بالغ في الإشفاق عليك. رآك تصنعين من عواطفك وبراءتك قفصاً تقيمين داخله، فلم يشأ أن يصدمك. ولكن حان الوقت كي نخرج من القفص ونتعلّم. لن يخفّف شقاءك إلّا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال : أتطلبين مني الانضمام إليكم؟

الفارعة : ليس هناك مخرج آخر.

دلال : لا أظن أن لديّ قوتك أو إيمانك. تصوّرت حياتي على نحو آخر.

الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوّة. لكن الأوهام التي غزلت حياتك منها تقيّدك **(يبدأ الطفل بالصراخ)** وتشوّش أفكارك.. استيقظ الأمير. لنسخّن الماء. ابقي أنت إلى جواره.

(تأخذ الفارعة الكيس وتخرج إلى مطبخ داخلي. تقترب دلال من الصغير. تحمله بحذر وتبدأ بمناغاته.)

دلال : ما اسمه يا خالة؟

الفارعة : (من الداخل) اسمه وعد.

(تنصرف دلال إلى مناغاة الطفل. فجأة يطرق الباب بعنف.)

دلال : تعالي يا خالة. لا أدري من يدقّ الباب.

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضّاعة.)

الفارعة : من؟
جدعون : **(من الخارج)** افتحوا.. أمن إسرائيلي.
دلال : ماذا نفعل يا خالة؟
الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.
جدعون : **(من الخارج)** افتحوا وإلّا حطّمنا الباب.
(تفتح الباب بهدوء. يقتحم الغرفة جدعون وموشي ودافيد، هم يشهرون أسلحتهم.)
الفارعة : على مهلكم... أفزعتم الطفل.
جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟..
الفارعة : نعم.
جدعون : **(نحو دلال)** هل أنت زوجته؟
الفارعة : **(تتاول منها الطفل، وتقف أمامها في وضع حماية)** ماذا تريد منها؟
جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
دلال : نعم.
جدعون : **(إلى موشي)** خذها.
الفارعة : إلى أين؟
جدعون : ليس شغلك.
الفارعة : خذوني بدلاً منها.
موشي : **(يزيح الفارعة بعنف، ويمسك دلال)** ابتعدي.. نريد زوجته.
الفارعة : لاتدفع.. كسر الله يدك.
جدعون : اخرسي.. من أنت؟
الفارعة : أنا فلسطينية. يناديني الناس الفارعة. زوجي الأول مات مسلولاً..
جدعون : خلاص.. خلاص. عرب نجاسة. من هذا الطفل؟
الفارعة : أتريد اعتقاله؟
جدعون : تأدّبي وأجيبي.. أهو ابنها؟

الفارعة : لا.. إنه ابني. هل تريدون اعتقاله؟

جدعون : سيأتي وقته... يا الله..

(موشي ودافيد يجرّان دلال، ويتّجهان نحو الباب.)

دلال : إني خائفة يا خالة.

الفارعة : لاتخافي يا دلال. إنّكِ أقوى منهم.

دلال : أخبري أهلي.

الفارعة : سأخبرهم. ارفعي رأسك، وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم. إني أنتظرك هنا. كلّنا ننتظرك هنا. كم خاف عليك.. وكم حاذر أن يوقظك. ولكن اليقظة الآن ستكون خشنة ومرعبة. أمدّك الله بالقوة والحكمة. وأنت يا أميري. لا.. لم أنسك. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه.. ياالله.. ها هو الحليب. هل تستطيع أن تعي حكايتك منذ الآن؟ إذن اسمع. هذه هي حكايتك. الدجاجة لها بيت. بيت الدجاجة اسمه القنّ. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الجحر. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العشّ.

(تبدأ الإضاءة بالخفوت والصوت بالتلاشي.)

الفلسطينيّ لا بيت له. والخيام والبيوت التي يحيا فيها، ليست بيت الفلسطينيّ. بيت الفلسطينيّ يحيا فيه عدوّ الفلسطينيّ. من هو عدوّ الفلسطينيّ(*)؟

(*) من قصة «البيت» لزكريا تامر.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(ضوء على الفارعة، ثم يظهر ابنها محمد)

الفارعة : ما أخطأ إسماعيل حين قال إن الطريق طويلة وشاقّة. نعم إنها طويلة وشاقّة. ذهبت إلى والد دلال. هي أوصتني، وأنا قلت لعلّها تكون مناسبة للصفاء، والدم لايصير ماء. أبوها ماشاء الله عنده وكالات بالجملة، ويلعب بالملايين. حين أخبرته عن ابنته غسّلنا بالشتائم تغسيلاً. هي وأنا معها. خاف أن تسبّب له متاعب مع السلطات فسمّانا قحاباً ومخرّبين.. أي والله سمّانا مخرّبين، وأقسم أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملأ أجمعين. والاعتقالات لم تهدأ.. وابني محمد زاد على رأسي الهموم. ركب رأسه، وانضم إلى الذين يركوبون الباصات كل صباح، ويذهبون للعمل هناك. قلت له..

الفارعة : يا ابني لاتكن غصّة في قلبي.

محمد : يامّه.. كلّه شغل.

الفارعة : لا.. الشغل مع ابن البلد شيء.. والشغل مع المحتلّ شيء آخر.

محمد : مع ابن البلد.! أنت تعرفين القصّة وما فيها. اشتغلنا مع أولاد البلد وأكلوا حقّنا. وصلت بيني وبين أبي قحطان للسماء. قلنا له الأجرة ناقصة، فنبر في وجهي وصاح.. لماذا اللّفّ.

تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود الله معك. لا أحد يمنعك. قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه هو الذي ريّش مع الاحتلال، وصارت عنده وكالات إسرائيلية وتعهّدات. فصرخ كالمسعور.. وتعيّرني يا ابن الفاعلة.. وكلمة من هنا، وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر. وفي النهاية ما أخذت من حقّي النصف.

الفارعة : لم تخبرني أنك تهاوشت مع أبي قحطان.

محمد : وما الفائدة؟ حاولت ألا أصدّع رأسك بهذه المتاعب.

الفارعة : ومع هذا لاتخلو البلد من أهل الخير. ابق هنا. ولا تنس أن العمل عند الإسرائيليين يغذّي الاحتلال ويعزّزه.

محمد : يامّه.. اتركي الخطابات وكلام الإذاعات. الاحتلال معزّز، ولن نقاومه بالجوع والجيب الفاضي.

الفارعة : يا ابني أنت تعرف مايقال عن الذين يعملون هناك.

محمد : إذا كانوا لايريدوننا أن نعمل هنا فليبنوا لنا معامل أو يقدّموا لنا معونات تنعش البلد. يبيعوننا خطابات، ويحدّثوننا عن الصمود ولكن الكلام لايملأ الجيب الفاضي. أتعرفين كم ينفق بعض الأمراء والفرسان العرب في ملاهي وكازينوهات الغرب؟ أتعرفين كيف يعيش زعماؤنا في المنفى! دعينا يامّه ولاتفتقي لنا المواجع.

الفارعة : إسماعيل نفسه انتقد العمل في مزارعهم وورشاتهم.

محمد : لو كان إسماعيل بلا شغل لتردّد في الانتقاد. وعلى كلّ أين إسماعيل الآن؟ الله يهوّن عليه وعلينا. اتركيني يامّه. الحياة صعبة وأنت تعرفين أن من يأكل العصيّ لاكمن يعدّها. أوقظيني مع الفجر.

الفارعة : ألن تراجع نفسك؟

محمد : اتكلي على الله.

الفارعة : لا إله إلا الله. لم أعرف كيف أقنعه. ولم استطع القسوة عليه. أحسست غصّة في قلبي، وأدركت أن اسماعيل ما أخطأ حين قال. إن الطريق طويلة وشاقّة.

(تلاشي الإضاءة)...

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث.

(إضاءة على غرفة دلال.. تظهر الفارعة أولاً، ثم تتبيّن دلال. تجلس في حالة غياب..).

الفارعة : اتسعت حملة الإعتقالات، وازداد عدد البيوت المنسوفة، وكنت لا أكاد أستقرّ في مكان حين أُفرج عن دلال. منذ رأيتها أدركت فظاعة ما حلّ بها. خلال أيام استلّوا شبابها، ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم الموقوت. أنهمر عليها بالأسئلة، فتحملق فيّ مترفعّة عن الإجابة.
(إلى دلال) قولي.. ماذا فعلوا بك؟
(صمت)

دلال : أين الطفل؟

الفارعة : عاد إلى أمه.

دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.

الفارعة : حدّثيني يا ابنتي. فضفضي عن نفسك.
(صمت)

الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمّ سألوك؟
(صمت)

دلال : هذه الرائحة.. هذه الرائحة..

الفارعة : أية رائحة؟

دلال : رائحة لاتزيلها عطور مصر والشام، ولاتغسلها مياه الأردن والفرات.

الفارعة : هل أهيّئ لك الحمام؟

(صمت)

الفارعة : تكلمي.. اصرخي.. لاتحصري الرعب في قلبك.

(صمت)

الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟

دلال : لايُجبر إناء الخزف إذا كُسر.

الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟

دلال : لايستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.

الفارعة : ولكن ماذا جرى؟

(صمت)

الفارعة : خفت من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.

(تتغير الإضاءة)

دلال : الأرض ضيّقة يا خالة.

الفارعة : إنها أرضنا.

دلال : أرضنا التي لانملك فيها حتى أجسادنا.

الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.

دلال : الأرض لاتتسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.

الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لاتسعت للجميع.

دلال : الأرض أضيق من القبر إذا لم يزولوا. إما نحن وإما هم.

الفارعة : يا ابنتي.. لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.

دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذّبون، وينتهكون كل شيء.. من يكونون؟ ألديك ميزان للقلوب.. لا... إما نحن وإما هم.

الفارعة : هذه عبارات قد تتحوّل ضدنا.

دلال : لا أحبّك حين تتفاصحين يا خالة.

الفارعة : لا أدري يا ابنتي... هذا ماتعلّمته من الشباب. قالوا لي نحن مناضلون ولسنا قتلة. قضيّتنا عادلة. وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية لا أن نقتل البشر.

دلال : وهل إسرائيل شيء، والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا خالة.. في بيت أبي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أهلي يعيشون في قوقعة من الثراء والتعالي. يخافون من الثورة والرعاع ونادراً ما كانوا يذكرون إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزُّهم. وأبي لم يُخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليّ زوجي، ولم يحدّثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة!

الفارعة : لم أفكر في هذا.

دلال : رائحة فظيعة تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويّتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا الموت. ماعرفته يا خالة يكفيني. وأنا الآن جاهزة. خذيني إليهم.

الفارعة : ألا تتمهّلين قليلاً؟

دلال : ولِمَ التمهّل؟

الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟

دلال : كل العزم.

الفارعة : كم كنت آمل ذلك.. ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.

دلال : لا.. من صاحب الموت لاتليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لك منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسي.

الفارعة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.

دلال : يأسي هو قوّتي. وهذا العدوّ لن يوجعه إلا حاقد ويائس.

الفارعة : وإسماعيل؟..

دلال : مع تعاقب الفصول وإلى آخر الزمن سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة.

(تخرج دلال.. وتبقى الفارعة.)

الفارعة : وانضمت إليهم، حملت يأسها كالحقيبة وانضمت إليهم. بقي معي مفتاح وغرفة فيها رائحة منزلية، وعبارة لاينقطع لها رنين. إما نحن وإما هم.

(يتلاشى الضوء عنها....)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع

(إضاءة على الفارعة وهي تترنح.. إنها جريحة. صياح وإطلاق رصاص. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد.)

الفارعة : رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لايركض هذا الولد؟. اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من الجنازة. الله أكبر.. عاد إسماعيل في تابوت مسمَّر. لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء وأن نرى التعبير الأخير على وجهه. رصاص.. لاشك أنه رصاص. جنود مقنّعون ومدجّجون بالسلاح. وسط الدموع كبّرنا وهتفنا. كانت الجنازة مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب. ريقي جافّ.. إني عطشانة. أرى ماء ولكن كيف أصل إليه؟ عاد إسماعيل في تابوت مسمَّر، فانفجر الغضب المحتقن في الصدور. اتّسعت المظاهرة، وبدأت الصدامات. ساقاي ألين من القطن وأنا عطشانة. في يوم واحد كبر الأطفال سنوات.. حملوا غضبهم ونزلوا إلى الشوارع. الجنود مقنّعون ومدجّجون بالسلاح. رصاص، وغيمة سوداء. عاد ابني الذي لم ألده في تابوت. **(تتداعى ببطء)** مات زوجي الأول مسلولاً، وكانت مهنتي النواح في المآتم. ريقي جافّ. زوجي الثاني أنساني الأول، ومنعني من النواح. سافر إلى لبنان، وفي المطلّة مات.

عاد إسماعيل في تابوت.. رصاص. ثلاثة من أولادي تفرقوا خارج البلاد والرابع هناك.. دلال سافرت. حملت عبارتها وسافرت. أريد جرعة ماء. هل تستطيع دلال أن تقاوم فصاحة الموظّفين وتجّار الكفاح؟ تجّار.. غيمة ثقيلة وخانقة... رصاص.. وتابوت. عتم.. أريد ماء. رنين.. رصاص ورنين.. إمّا نحن.. وإمّا..

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصمّ.)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس

(الفارعة مضمّدة على سرير مستشفى. يجلس ابنها محمد على طرف السرير.)

الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.

محمد : (مازحاً) وكيف وجدت الموت؟

الفارعة : الموت حقّ. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟

محمد : قرأنا الفاتحة مرات. ولكننا اجتزنا الخطر، وقرّرنا أن نحيا.

الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص.

محمد : أنتِ أغلى مما تتصوّرين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم.!

الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟

محمد : كنت بحاجة إلى دم كثير، ولم يقبلوا في المستشفى أن يأخذوا مني المزيد. فتدافع الشباب للتبرّع. الآن.. كلّ الدم الذي يتدفق في عروقك شاب. وعندما تنهضين بالسلامة ستعودين صبيّة.

الفارعة : أنتم أحوج إلي دمائكم من عجوز مثلي.

محمد : الدم يعوَّض، أما الفارعة فلا تعوَّض.

الفارعة : حماكم الله، ورعى شبابكم. هل كان هناك كثير من الضحايا؟

محمد : دعيك الآن من هذا. عليك أن تهتّمي بنفسك كي تشفي بسرعة.

الفارعة : إني بخير.. كم كان عدد الضحايا؟

محمد : ما حان الوقت كي نحصي ضحايانا؟

الفارعة : ماذا تعني؟... أخبرني.. ماذا يجري؟

محمد : إنها تشتعل وتمتدّ.

الفارعة : هل تمتدّ فعلاً؟..

محمد : نعم.. إنها تمتدّ في الضفّة والقطاع.

الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وأنت؟

محمد : ماذا تظنّين.. مهما فعلت فأنا ابن أبي وأمي. رميت البطاقة، وملأت مكانك الشاغر في الصدامات.

الفارعة : الآن.. اكتملت فرحة أمك.

محمد : ولكن بعد اليوم، عليك أن تركني في البيت. أصبحت كبيرة على المظاهرات ورمي الحجارة.

الفارعة : وأنت... ألست صغيراً على توجيه التعليمات إلى أمك.. لم تعطوني دمكم كي أركن في البيت. ولكن قصّ عليّ أخباركم. أريد أن أعرف كل شيء.

محمد : **(يخرج راديو ترانزستور من علبة، ويقدّمه لها)** حملت لك هذه الهدية كي تعرفي ما يجري.

الفارعة : واشتريت لي راديو..

محمد : إنها هدية منا جميعاً. ولكن لاتنسي أن الطبيب حذّر من الانفعال والجهد..

الفارعة : لاتخف عليّ.

محمد : يجب أن أمضي.. هل تريدين شيئاً؟

الفارعة : سلامتك وسلامة رفاقك. قبّلهم وبلّغهم سلامي.

(يقبّلها ويخرج.. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني

من إحدى المحطات العربية.)

القارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين حقاً..
هذا ما نحتاجه، بعض الدم والطحين.
(تلاشى الإضاءة).

سعد الله ونوس

ولد عام 1941 في قرية (حصـين البحر) محافظة طرطوس، سـوريا درس حتى الثانوية في قريته كان أول كتاب أقتناه هو "دمعة وابتسامة" لجبران وكان عمره 12 سنة، ثم نمت مجموعة كتبه وتنوعت : طه حسين ، العقاد، ميخائيل نعيمة، نجيب محفوظ، يوسف السباعي، إحسان عبد القدوس ... الخ

1959حصل على الثانوية العامة، وسافر إلى القاهرة في منحة دراسية، ليدرس الصحافة في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

1961انفصال الوحدة بين سوريا ومصر (هزة شخصية كبيرة) فكتب مسرحية طويلة عنوانها "الحياة أبداً."

1962كتب مقالاًفي مجلة (الآداب) حول الوحدة والانفصال، ومقالات في جريدة (النصر) الدمشقية.

1963الحصول على الليسانس، دراسة نقدية طويلة عن رواية (السأم).

ألقى في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق سلسلة محاضرات تحت عنوان (في البحث عن مسرح عربي).

بدأ الكتابة في مجلة الآداب التي نشـر فيها مقالا عن الانفصـال ودراسـة عن رواية السـأم لالبرتو مورافيا، ثم رجع إلى دمشق وعمل في وزارة الثقافة عمل محرراً للصفحات الثقافية في صحيفتي السفير اللبنانية والثورة السورية. كما عمل مديراً للهيئة العامة للمسرح والموسيقى في سوريا. في أواخر السـتينات، سـافر إلى باريس ليدرس فن المسـرح. وبعد أن عاد تسـلم تنظيم مهرجان المسـرح الأول في دمشـق ثم عين مديراً للمسـرح التجريبي في مسـرح خليل القباني مسـرحياته كانت تتناول دوما نقدا سياسيا اجتماعيا للواقع العربي بعد صدمة المثقفين إثر هزيمة1967، في أواخر السـبعينات، سـاهم ونوس في إنشـاء المعهد العالي للفنون المسـرحية ب دمشـق، وعمل مدرساً فيه. كما أصدر مجلة حياة المسرح، وعمل رئيساً لتحريرها.

في أعقاب الغزو الإسـرائيلي للبنان وحصـار بيروت عام 1982، غاب ونوس عن الواجهة، وتوقف عن الكتابة لعقد من الزمن. عاد إلى الكتابة في أوائل التسـعينات. كان سعد الله ونوس أول مسـرحي عربي يقوم بكتابة الرسـالة الدولية في اليوم العالمي للمسـرح 27 آذار 1996 تم تكريم سعد الله ونوس في أكثر من مهرجان أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي ومهرجان قرطاج وتسلم جائزة سلطان العويس الثقافية عن المسرح في الدورة الأولى للجائزة في 15 أيار (مايو) 1997، توفي ونوس بعد صراع طويل استمر خمس سنوات مع مرض السرطان.

وهكذا كان سـعد الله ونوس مقاتلاً بالكلمة وحالماً بالحرية حتى آخر لحظة في حياته, فقد ذكرت زوجته فايزة شاويش انه لم يترك الكتاب والورق والاقلام حتى في ايامه الأخيرة بالمستشفى وهو

يودع دنيانا. ومن الأقوال الشـــهيرة له والتي القاها في مؤتمر المســـرح بباريس قبيل وفاته (نحن محكومون بالأمل ولا يمكن ان يكون هذا نـهاية التاريخ).

منح ســـعد الله ونوس الجائزة على مجموع أعماله المســـرحية، مع التنويه بمســـرحياته الأربع التالية: حفلة ســـمر من أجل 5 حزيران، ســـهرة مع أبي خليل القباني، مغامرة رأس المملوك جابر، الملك هو الملك.

وذلك لما تحققه هذه الأعمال من تأصــيل لصــيغة مســرح عربي يفيد أولاً من تراث الأمة العربية تاريخاً، أو أسـطورة، أو حكاية، ويفيد ثانياً من التراث المسـرحي الإنسـاني، قديمه وحديثه موظفاً بشــكل خاص أســاليب المســرح الملحمي، والمســرح داخل المســرح، في قالب يتحد فيه الإيقاع الدرامي ضـــمن هدف خلق مســـرح عربي جديد. ويتعامل مع الواقع العربي برؤية واضـــحة من الناحيتين النظرية والعملية، واعية لدور المســـرح في تعميق الإحســـاس الجماعي بالمصـــير التاريخي.

كاتب مســـرحي ســـوري ولد في حصـــين البحر بمحافظة طرطوس عام 1941 ، واشـــتهر منذ الستينات كواحد من أبرز وجوه الحركة الثقافية والمسرحية في العالم العربي.

درس الصحافة في القاهرة وأنهى دراسته في عام 1963 . وفي تلك الفترة بدأ اهتمامه بالمسرح وكتب مسرحيات قصيرة صدرت عن وزارة الثقافة في سوريا عام 1965 ، في كتاب مستقل تحت عنوان " حكايا جوقة التماثيل " ثم جمعت مع غيرها في كتابين صـــدرا عن الآداب في لبنان عام 1978 . ومن أهم هذه المســـرحيات القصـــيرة " ميدوزا تحدق في الحياة " و " فصـــد الدم " (1963) ، و " جثة على الرصـيف " ومأســاة بائع الدبس الفقير " والرسـول المجهول في مأتم انتيجونا " (1964) و " الجراد.(1965) "

سافر إلى فرنسا عام 1966 وتعرف على المسرح الغربي في فترة تحولاته الأساسية ، واستطاع أن يستوعب أهم الطروحات الجديدة في تلك المرحلة وأن يطوعها في أعماله على أرضية المسرح العربي واهتماماته . فاستخدم " الهابننغ والتحريض " وأدخل تقنياتهما على موضوع الحرب في عام 1968 وذلك لكي يطرح سؤالا جوهريا حول الهزيمة مشككا بقدرة الكتابة المسرحية التقليدية على التعبير عن المستجدات والأحداث العنيفة المعاصرة كما في مسرحية " حفلة سمر من أجل 5 حزيران. "

إن استخدام تقنيات المسرح الغربي ، في تلك المرحلة ، لم يؤد عند سعد الله ونوس ، بأي حال من الأحوال إلى عملية نسخ ، وإنما كان عملية جدلية ربطت ودمجت بين أهم التطورات التي دخلت على المســـرح العالمي في الغرب ، وبين أشـــكال وتقاليد " الفرجة " في تراثنا الثقافي والشـــعبي . وهذا ما نجده في مســـرحيات مثل " الملك هو الملك " (1978) و " الفيل يا ملك الزمـان " ، و " مغامرة رأس المملوك جابر " (1969) حيث يحكي حكواتي لجمهور مقهى شـعبي حكاية المملوك الذي ضـيع رأسـه في معمعة الصـراع على السـلطة . في هذه المسـرحيات يســتخدم ونوس تقنيات اللعبة والحكاية التي تولد حكاية أخرى (كما في حكايات ألف ليلة وليلة) ، وتقنية المســرح داخل المســرح بحيث تبدو الأمور وكأنه لعب ينقلب إلى جد . وقد بلور ونوس عبر هذه المسرحيات مفهوم " التسييس " وميزه عن المسرح السياسي.

وبالإضــافة إلى ذلك صــاغ ونوس أفكاره عن المســرح والثقافة بشـكل نظري في كتابي " بيانـات لمســـرح عربي جديد " و " هوامش ثقافيـة " . والواقع أن اهتمـامـات ونوس المتعددة والمتنوعة على المســـتوى الثقافي قد تبلورت في نواح عديدة منذ البداية . فقد قام بترجمة جان فيلار إلى العربية ، وكتب مسرحية عن مؤسـس المسرح في سوريا وهي " سـهرة مع أبي خليل القباني " . كما سـاهم في ترسـيخ أسـس لمهرجان مسـرحي في دمشـق ، وأسـس وترأس تحرير مجلة مسرحية مختصة هي (الحياة المسرحية) ، وسـاهم في إنشـاء معهد لتدريس المسرح في سوريا.

كرم سعد الله ونوس في محافل عديدة أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي في دورته الأولى ومهرجان قرطاج بـــــ تونس عام 1989 وحصل على جائزة سلطان العويس الثقافية عن حقل المسرح في دورتها الأولى.

صــــدرت أعماله الكاملة في عام 1996 ، في ثلاثة مجلدات عن دار الأهالي بدمشــــق ، جمعت فيها كل المســـرحيات الطوية والقصـــيرة والنصـــوص النظرية من بيانات وكتابات تتعلق بالمسرح . وقد ترجمت مسرحياته إلى العديد من اللغات الأجنبية كما نشرت وتم عرضها في كثير من الدول العربية والأوربية.

رحل سعد الله ونوس في الخامسة عشر من أيار / مايو 1997 ، أثر مرض دام لسنوات لم ينقطع خلالها عن الكتابة . ومن أعماله في هذه الفترة " طقوس الإشـــارات والتحولات " و " والأيام المخمورة. "

هوامش للعرض والإخراج

أحاول في هذه المسرحية تجربة أخرى من تجارب " مسرح التسييس " التي بدأتها من قبل - ينبغي هنا التنبيه إلى أن هناك فارقا كبيرا بين " المسرح السياسي " و " مسرح التسييس " لا مجال الآن للبحث فيه - وأحدد بسرعة مفهوم هذا " المسرح " على أنه حوار بين مساحتين . الأولى هي العرض المسرحي الذي تقدمه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره . والثانية هي جمهور الصالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته .. وحتى الآن لا يزال هذا الحوار صعبا . فمن جهة ، هناك التقاليد المسرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار ، أو إقامته بصورة غير مباشرة وضمنية . وهناك أيضا - وهذا أهم - طبيعة المتفرجين أنفسهم وموانعهم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشرة الحوار والانسياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم . لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار كأن نضع في سياق العمل متفرجين يتحدثون لحسابهم ، ويناقشون ، ويقدمون نموذجا لما يستطيعه ، المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه . طبعا نحن لسنا من السذاجة بحيث نعتقد - كما ظن أحد الكتاب في تعليقه على " حفلة سمر " - أن المتفرجين الحقيقين لن يكتشفوا أن هؤلاء الذين يجلسون بينهم ، ويشتركون في النقاش والحوار ، همم ممثلون مدربون على أدوارهم .. ولكن كما قلت سابقا : إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت ، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مساحتي المسرح : العرض والمتفرج . ومن المؤكد أن هذه الوسائل ليست كافية وحدها ، وقد تتحول إلى مجرد مسألة شكلية وتقنية ، ما لم يتوفر الأمر الأهم والأساسي في إثارة الحوار وتشجيعه . وأعني أن تتوفر في العرض المسرحي - أي في المساحة الأولى - الشروط اللازمة لإثارة الحوار .. كارتباط الموضوع بحياة المتفرج ومشاكله ، ونوع المعالجة ، وشكلها .. و... على أن هذه الشروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها ، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئة وبنيتها . وللأسف حتى الآن لم نشرع جديا في هذا البحث.

إني أحلم بمسرح تمتلئ فيه المساحتان ، عرض تشترك فيه الصالة عبر حوار مرتجل وغني يؤدي في النهاية إلى هذا الإحساس العميق بجماعيتنا وبطبيعة قدرنا ووحدته.

هذه المسرحية ليست إلا مشروع عمل لن يتم إلا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة ولها رؤيتها ، تقوم ببنائه وبلورة إمكانياته من خلال بحث دؤوب ، لا تتوقف حددوده عند الهواجس

الجمالية ، بل تتعداها إلى المشكلات السياسية والاجتماعية للواقع . إن كل تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغي أن تكون في الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة ، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه . دون ذلك ، هذه المسرحية تفقد كل مبرراتها وقيمتها أيضا.

عندما أقول إن المسرحية ليست إلا مشروعا للعمل ، فإنني أعني وجود بعض الثغرات والمساحات الفارغة ، التي تركت عمدا كي يملأها " العرض المسرحي " بما يلائم الظروف والمكان . ليست لهذه المسرحية بداية دقيقة ، والسياق نفسه يمكن ألا يتخذ شكلا صارما ومعماريا . نحن في مقهى .. والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحي ، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة . والجو الذي يسوده له دور صميمي في المسرحيه . فمن خلاله سنعمد إلى كسر الطوق اليابس للعرض المسرحي ، وسنتخلص من طقوس العمل الدائري التام لنبعث بعد ذلك نوعا من الألفة بين المتفرجين ، يتيح لنا تقديم صورة عفوية تتخللها حكاية ذات مغزى . لهذا فإن البداية ليست مرهونة بساعة معينة أو بافتتاح صارم . إننا نبدأ فقط عندما يعم إحساس منشود بالألفة . وتتلاشى الغرابة الأولى ، التي يحسها المرء حين يجد نفسه وسط جماعة ، هي الأخرى بمجموعها تحس بالغرابة إزاء قصة وشخصيات ومناظر تراها لأول مرة.

باختصار إني أقترح شكل " سهرة المنوعات " لعرض مسرحي . ولا شك جو المقهى يتيح لنا فرصة ممتازة لذلك . وهذا الشكل لا يلتصق بهذه المسرحية فقط وإنما يمكن التوسع فيه ، واستنفاد إمكانياته في أعمال كثيرة لأن المهم في النهاية هو أن نتجاوز شكلا صارما لمسرح ، حتى الآن لا يزال المتفرج عندنا يجد نفسه غريبا إزاءه . وهو يبذل مجهودا خاصا - مجهودا ثقافيا بالطبع - كي يتلاءم مع هذا الشكل أو يألفه.

وباعتبار ما سبق ، فإن كل أحاديث الزبائن ، وتدخلهم في مجريات الأحداث ، وتعليقاتهم ليست إلا اقتراحات ، أو ما سميته وسيلة اصطناعية لتشجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار .. ولهذا فمن الممكن في ضوء أي إخراج أن يعاد النظر في هذه الأحاديث ، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية...

يمكن تقديم هذه المسرحية في أي مكان ، وفي أي مساحة أنا أضعها الآن في مقهى ، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها في أي مكان...

وبكلمة واحدة .. إني أبحث عن عرض حي لحكاية تهمنا جميعا . ولذا أتصور استخدام كل الوســـــائل الممكنة كي نصـــل إلى هذا العرض الحي الذي أتمناه " فرجة " ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره.

في ركن ناءٍ من قرية حصـــين البحر بريف طرطوس الســوري، وُلد ســـعدالله ونوس عام 1941 وســـط عائلة فقيرة تعاني من وطأة الحرمان. كان الطفل ضـــعيفا في مادة التعبير، لكنه لم يكن يعلم أن تلك النقطة السلبية في تقريره المدرسي ستكون بوابة نحو عالم الكلمة والمسرح.

يروى أن أســتاذه، بنظرة حانية، نصـحه بالإكثار من القراءة، وهكذا بدأت رحلته. أول كتاب اقتناه كان "دمعة وابتسـامة" لجبران خليل جبران، ثم توسـعت مكتبته تدريجيًا لتشـمل أعمال طه حسـين وميخـائيل نعيمـة ونجيب محفوظ، لتصـــبح فيما بعد ملاذًا لـه من واقعه القاســـي. هذه البدايـة المتواضـعة لم تكن مجرد لحظة عابرة في حياته، بل كانت شـرارة لإشـعال موهبة كتب لـها أن تـهزّ خشبة المسرح العربي وتترك بصمة لا تُمحى.

الرحلة نحو الكلمة

تأملات نقدية في التاريخ العربي

بعد حصـــوله على الثانوية العامة عام 1959، غادر ونوس قريته إلى القاهرة بمنحة دراسية لدراسة الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة. في شوارع المدينة الضخمة، وجد نفسه منجذبًا إلى محاضــرات الدكتور محمد مندور، حيث اكتشـــف عالم النقد الأدبي الذي فتح له أبواب المسرح.

هناك، في أروقة الجامعة، بدأ يكتب أولى محاولاته المســـرحية بعنوان "الحياة أبدا" عام 1961، رغم أنها لم تُنشـــر آنذاك. كانت تلك الخطوة الأولى في رحلة طويلة كان يجهل وجهتها، لكنها كانت مليئة بالحماس والتطلع.

عاد إلى دمشق عام 1963، حيث عُيّن مشرفًا على قسم النقد في مجلة "المعرفة" التابعة لوزارة الثقافة. في تلك الفترة بدأ يكتب مقالات نقدية ومسـرحيات قصـيرة نُشـرت في مجلات مثل "الآداب" و"الموقف العربي."

عام 1965 أصدر أولى مجموعاته المسرحية بعنوان "حكايا جوقة التماثيل"، التي ضمت ست مسرحيات، منها "لعبة الدبابيس" و"جثة على الرصيف" و"الرسول المجهول في مأتم أنتيغونا". كانت هذه الأعمال تعكس رؤيته الأولية للمسرح كأداة تعبير عن الواقع الاجتماعي، لكنها كانت مجرد مقدمة لما سيأتي لاحقًا.

ميلاد "مسرح التسييس"

عام 1966 حصل ونوس على إجازة دراسية وسافر إلى باريس لدراسة المسرح الأوروبي. في شوارع العاصمة الفرنسية كتب رسائل نقدية عن الحياة الثقافية هناك، ونشرها في مجلات عربية، لكن الحدث الأكبر كان نكسة حزيران 1967. تلك الهزيمة المؤلمة هزت وجدانه، فكتب مسرحيته الشهيرة "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران"، التي اعتُبرت صرخة ضد الخذلان والاستسلام. هنا، تبنى ونوس مفهوم "مسرح التسييس"، وهو أسلوب يتجاوز مجرد عرض الواقع ليصبح أداة لتغييره. كان يؤمن بأن الأنظمة القمعية تستفيد من مجتمع لا يفكر سياسيًا، وأن تسييس المجتمع هو خطوة تقدمية جوهرية.

أولى محاولاته المسرحية

بمرور الوقت تحول مسرح ونوس إلى مرآة تعكس تناقضات المجتمع العربي، لكنه لم يقتصر على عكس عيوب المجتمع، بل سعى لكسر تلك الصورة وإعادة تشكيلها.

في "سهرة مع أبي الخليل القباني" (1973) استعاد دور الفن في مواجهة السلطة، بينما في "طقوس الإشارات والتحولات" (1994) غاص بعمق في قضايا الدين والجنس والسيطرة. "منمنمات تاريخية" (1994) قدمت تأملات نقدية في التاريخ العربي، و"الأيام المخمورة" (1997)، آخر أعماله، كانت وصية كتبها وهو يصارع المرض، محملة بالأمل رغم الألم.

لم يكن ونوس منخرطًا في أحزاب سياسية، لكنه كان مثقفًا ملتزمًا، يرى أن دوره يتجاوز الكتابة إلى مساءلة الواقع. قال ذات مرة "إننا محكومون بالأمل،" عبارة أصبحت شعارًا في خطابه ليوم المسرح العالمي 1996، حيث كان أول كاتب عربي يُكلف بهذا الشرف بعد توفيق الحكيم. كانت كلماته دعوة إلى استمرار النضال الفكري، حتى في أحلك الظروف.

في سنواته الأخيرة أصيب ونوس بالسرطان، لكنه رفض أن يتوقف قلمه. كتب خلال تلك الفترة أعماله الأعمق، كأنما كان يريد ترك كل ما لديه قبل الرحيل. في 15 مايو 1997، توفي

عن عمر 56 عامًا، تاركًا إرثًا مسرحيًا وفكريًا عظيمًا. لم يكن مجرد كاتب، بل كان ضـميرًا ثقافيًا قاوم الطغيان بالكلمة، وجعل من الخشبة منبرًا للحرية.

رمز تحت التهديد

بعد 28 عامًا من رحيله، عاد اســم ونوس إلى الواجهة في ســياق غير متوقع. في ظل حكومة انتقالية جديدة تسـعى لإعادة تشـكيل الهوية الثقافية السـورية، تسـربت وثيقة في 2025 تشير إلى اقتراح يقضي بإعادة تسمية أكثر من 60 مدرسـة في دمشق، منها مدرسـة تحمل اسم ونوس.

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته

زوجته، فايزة شـاويش، عبّرت عن أسـفها العميق، قائلة إن زوجها "رمز وطني لا ينتمي إلى نظام، بل يستحق التكريم." اندلعت ضجة واسعة، لم تكن مجرد رد فعل على اسم مدرسـة، بل تعبيرًا عن خوف من محو الرموز الثقافية التي شكلت وجدان السوريين.

تدخل وزير الثقافة، محمد ياســين صــالح، ليؤكد بقاء الاســم، لكن القرار الأولي أثار تسـاؤلات. لاحقًا، أُعلن تراجع السـلطات عن قرار رفع الاسم بعد ردود فعل غاضـبة من المثقفين. لو لم يتراجعوا، كان ذلك سيُفسر كإشـارة إلى استمرار منطق الإقصـاء، وكان سيضـعف مصداقية النظام الجديد في ادعائه الانفتاح. التراجع، رغم تأخره، أعطى فرصــة لإعادة الاعتبار لرمزية ونوس، لكنه أيضًا أبرز حساسية المجتمع تجاه محاولات التلاعب بالذاكرة الثقافية.

إرث لا يُمحى

إرث ســعدالله ونوس لا يقاس بعدد مســرحياته، بل بقدرته على إلهام أجيال. كان يرى المسـرح فضـاء لتحرير الإنسـان من الخوف والتبعية، وسـلاحًا ضـد الصـمت. أعماله، من "حفلة ســمر" إلى "الأيام المخمورة"، لم تكن مجرد نصــوص، بل دعوات للتفكير والتغيير. في زمن الانكسارات كتب ليقاوم، وترك أملًا يستمر في التوهج.

اليوم، ونوس يبقى رمزًا للمثقف المقاوم، والمســرح منبرًا للحرية. اســمه على مدرســة ليس مجرد تكريم، بل تذكير بأن الكلمة يمكن أن تكون مقاومة، وأن الثقافة هي الوطن الحقيقي الذي لا يمكن أن يُغلق. في عالم يتغير باســتمرار، يبقى صــوته نقيًا، يدعو إلى الأمل، ويحث على

التسـاؤل: هل يمكن للفن أن يغير الواقع؟ سـعدالله ونوس أجاب: نعم، وأثبت ذلك بكل خطوة خطاها على خشبة المسرح.

أهم المؤلفــات :

- **فصد الدم 1964.**
- **صـدور أول مجموعة له من المسـرحيات القصـيرة عن وزارة الثقافة تحت عنوان (حكايا جوقة التماثيل) 1965.**
- **عندما يلعب الرجال 1968.**
- **حفلة سمر من أجل خمسة حزيران 1968**
- **الفيل يا ملك الزمان1969.**
- **مغامرة رأس المملوك جابر 1971**
- **ترجمة كتاب (حول التقاليد المسرحية) 1976.**
- **الملك هو الملك 1977**
- **رحلة حنظلة 1978**

- **الاغتصاب 1990**
- **منمنمات تاريخية 1994**
- **طقوس الإشارات والتحولات 1994**
- **أحلام شقية 1995**
- **يوم من زماننا 1995**
- **ملحمة السراب 1996**
- **بلاد أضيق من الحب 1996**
- **رحلة في مجاهل موت عابر 1996**
- **الأيام المخمورة 1997**